وصف مصر: نظرة الآخر
(الدولة الحديثة)

د. منال خضر

إن علاقة الغرب بالشرق علاقة ثرية ومركبة؛ فلقد كان الشرق –دوما– بالنسبة للغرب– الآخر القريب، ولانعنى بالقريب هنا المعنى الجغرافى فحسب وإنما القريب فى مخيلة الآخر وذهنه والمجاور له على مر العصور. على أية حال، فقد نتج عن هذا التجاور المكانى الرغبة فى الاكتشاف والمعرفة، كما أثار فضول الآخر فأحدث حروبا وولد أسفارا. وأخذت هذه الرغبة فى معرفة الآخر ألوانا متعددة من الغموض والتنافس والصراع والتهديد، وتبدلت النظرة عبر العصور؛ فتأرجحت بين الافتتان والسخط، إلا أن الشرق ظل هو الآخر بحق. ولاشك أن العلاقات المصرية الفرنسية قد خضعت لنفس هذا المصير، فقد تشابك الخيال مع الحقيقة منذ الاحتكاكات الأولى، سواء كانت تجارية أو فكرية أو دينية.. ناهيك عن الأخبار التى تناقلها الرحالة الذين كانوا ينقلون بدورهم ما رأوه أو ما جلبوه من البضائع الشرقية المختلفة خلال أسفارهم.

والواقع أن فرنسا تمثل حالة خاصة بالنسبة للضمير المصرى ؛ فكثيرا ماتعتبر مرجعاً أساسيا لنا كمصريين وإن كان هذا المرجع متغير فى لونه وشكله، متناقض فى خواصه، لكنه يظل ثابتا فى وظيفته الاستقطابية.. لهذه الأسباب اخترنا أن ندرس إشكالية نظرة الآخر على ضوء مؤلف "وصف مصر"الذى صدرت طبعته الأولى (الامبرالية) فى الفترة من 1809 إلى 1828، واشتمل على ثلاثة أطالس من

اللوحات فى عشرة أجزاء وتسعة أجزاء من النصوص، وزعت كلها على ثلاثة تقسيمات: مصر القديمة والدولة الحديثة والعلوم الطبيعية، بالإضافة الى أطلس يضم الخريطة الجغرافية والطوبوغرافية. أما الطبعة التى استعنا بها عمليا فى الدراسة فهى طبعة بانكوك التى صدرت بين عامى 1820 و 1829، وهى النسخة الموجودة فى مكتبة جامعة القاهرة.

من الطبيعى أن يعد مؤلف "وصف مصر" عملا رياديا و نموذجا فريدا لاسابق له، وربما لامثيل له من حيث الموضوع والحجم.. فالمعروف أنه حتى ذلك الحين لم يحظ أى مكان آخر فى العالم بهذه النوعية من الفحص والدراسة. فهو بالقطع عمل ضخم قام به نخبة من العلماء والمهندسين والرسامين الفرنسيين الذين صاحبوا الحملة العسكرية، وانكبوا جميعا على إحصاء الآثار المصرية وفحص حيواناتها ونباتاتها وسكانها، واقتصادها ومؤسساتها الاجتماعية والسياسية، إلخ. لذلك كثيرا ما يطلق عليه أنه موسوعة علمية حقيقية. لقد كانت قائمة الأسماء المشتركة فى هذا العمل مذهلة فلجنة العلوم والفنون التى صاحبت الحملة -لتكون المعهد المصرى فيما بعد- ضمت علماء لايستهان بهم، إلى جانب شباب الدارسين فى مجالات مختلفة ومتنوعة الذين أتوا لدراسة الحالة المصرية والوقوف على ظروف هذا البلد عن قرب. ورغم أن البحث فى السيرة الذاتية للباحثين الذين شاركوا فى كتابة "وصف مصر" قد أفاد أن معظمهم كانوا غيرمعروفين عند مجيئهم لمصر، إلا أن الملاحظات والمعطيات التى سوف تتوفر لديهم من خلال البحث الميدانى خلال إقامتهم سوف تكون لها دوى ملموس فى الأوساط العلمية لاحقا فى فرنسا، بل إنها سوف تنتشر منها الى أوروبا لتغذى مختلف المجالات العلمية فى النصف الأول من القرن التاسع عشر؛ كالطفرة التى ستحدث فى مجال العلوم الاجتماعية وكذلك الجغرافيا والفيزياء التجريبية؛ حيث ابتكر هؤلاء الشباب مناهج جديدة لم تكن متبعة سابقا: إن الخريطة الجغرافية التى وضعها جاكوتان Jacotin والمتضمنة فى "الدولة الحديثة" – مثلا- كانت أحدث ما توصل إليه علم الخرائط عند صدورها؛ إذ لم يكن فى أوروبا خريطة لمصر بهذه الحداثة حتى ذلك الحين.

من هنا أتى الالتباس؛ بمعنى أن مجرد التفكير فى أن بعض من شاركوا فى كتابة وصف مصر يمثلون فاكهة النخبة المفكرة فى فرنسا قد يجعلنا نتردد ألف مرة قبل إعادة فتح هذا الملف لتحليله أو نقده؛ إذ يبدو للوهلة الأولى أنها موسوعة علمية موضوعية لن يكون فيها مايثير الشك أو حتى النقد. بيد أن معرفة الآخر الحقيقية لابد أن تمر بذاتية الملاحظ وأيديولوجيته والمجموعة التى ينتمى إليها ويتحدث بالنيابة عنها. بالتالى فإن السؤال الذى من الممكن أن يكون عصب هذه الإشكالية هو: إلى أى حد تقدم هذه الموسوعة شهادة موضوعية فى وصف مصر؟ للإجابة على هذا السؤال لابد لنا أن نتذكر أن المشاركين فى الكتابة ينحدرون مما أطلق عليه "عصر التنوير" فى فرنسا، فهم متأثرون إذًا بفكر معين، والخطاب الصادر عنهم يسعى لأن يكون خطابا شموليا وعالميا. ويعتقد المشاركون فى كتابة هذا المؤلف أن لهم رسالة إنسانية وهى نشر التقدم والحضارة فى الأماكن التى تئن تحت وطأة العبودية والتخلف. فهل راهن علماء الحملة على القيام بعمل بضخامة ادعاءاتهم أم أن رؤية الآخر(بمعنى وصفه والحكم عليه) ليست سوى انعكاس لصورتهم الذاتية ؟ يجيب تسفتان تودوروف Tzvetan Todorov فى كتابه " نحن والآخرون" على هذا التساؤل فيقول مامفاده: إن أسوأ ما فى ادعاءات مذهب العالمية universalisme الذى يعد أحد البنود الأساسية فى فكر التنوير بفرنسا آنذاك- أنه ليس سوى قناع يخفى وراءه العرقية المتجردة.. وعندما انتحلت الذاتية اسم هذا المذهب أصبحت مسؤولة عن أحداث مشينة أقل ما يقال عنها: إنها وصمة عار فى تاريخ أوربا الحديث وهى الغزوات الاستعمارية [1].

وبالفعل، فإن مقدمة "وصف مصر" التى كتبها المهندس فوريه Fourier وعدلها الإمبراطور نابليون بنفسه تظهر بوضوح مشروعه الاستعمارى الذى يسميه هو "رسالة حضارية"، ويقول فى معرض سرده لوجهة نظره عند تبرير سبب اقتحامه مصر: " إن البطل الذى قاد الحملة لم يكتف بمعاقبة هؤلاء الذين يعطلون مرور التجارة الفرنسية، لكنه أعطى مشروع الحملة بعدا أعظم حينما صبغها بعبقريته الخاصة؛ فبالإضافة لما لهذا الحدث من أثر على التجارة مع الشرق والعلاقات

الأوربية مع إفريقيا والملاحة فى المتوسط ومصير آسيا، فلقد أراد أيضا إزالة طغيان المماليك، ومد مساحة الزراعة والرى، وإيجاد وسيلة اتصال مستمرة بين المتوسط والخليج العربى، وإهداء نموذج الصناعة الأوربية النافع إلى الشرق، وأخيرا تحسين الظروف المعيشية للمصريين ومنحهم كل مزايا الحضارة الأوربية المكتملة...".
لاشك أن فرنسا – بهذه النبرة المتعالية والادعاءات الواضحة – المتشربة بأيديولوجية التنوير – كانت تبدأ عصر الاستعمار الأوربى فى الشرق الأوسط. ومن العجب أن نجد نفس الخطاب الاستعمارى بحذافيره يتكرر فى مطلع القرن الحادى والعشرين؛ أى بعد مرور أكثر من مائتى عام على الحملة الفرنسية على مصر، فى رسالة جورج بوش الابن عند احتلاله للعراق!

من هذا المنظور اخترنا أن نتناول تحديدا الجزء الخاص بالدولة الحديثة؛ أى الجزء الذى ينقل حالة مصر – من وجهة نظرهم – فى نهاية القرن الثامن عشر الميلادى؛ لأنه –قطعا- الجزء الأكثر تورطا من الناحية الأيديولوجية وهو الذى يكشف عن الأفكار التى حرضت العلماء على وصف مصر بهذه الكيفية إيجابية كانت أم سلبية.

لعل من الضرورى أن ننوه إلى أن سياسة التوسع الإقليمى والأيديولوجية التى استتبعتها كانت من المفاهيم الرئيسة التى قامت عليها فلسفة التنوير، خلال القرن الثامن عشر الفرنسى: فالحروب الثورية – ومنها الحملة على مصر- تنبثق عنها مباشرة، وكذلك حروب نابليون فى أوربا فيما بعد. والأهم أن العلم – فى هذه الحالة – كان أداة أساسية لتدعيم الاحتلال على أساس أنه يعتمد بل ويؤكد سفلية البلاد المفتوحة ثقافيا وعلميا وسياسيا. فى هذا الصدد، تبدو الحالة المصرية حالة نموذجية يتصاهر فيها السيف مع القلم بحيث يبدو الجانب العلمى ملازما ومكملا للفتح العسكرى.

وتحاول هذه الورقة عرض أهم المحاور التى تناولتها أطروحة الدكتوراه التى تقدمنا بها إلى كلية الآداب بجامعة القاهرة وموضوعها: وصف مصر: نظرة الآخر (الدولة الحديثة)[2]. وتتكون الدراسة من جزأين؛ الأول تاريخى،والثانى تحليلى.

والإشكالية التى يعالجها الجزء الأول هى: لماذا تم اختيار مصر فى هذا التوقيت بالذات؟ وما الملابسات التاريخية والمذاهب الفكرية التى دفعت الحركة السياسية؟ ثم من هم المؤلفون[3] ؟ وما موقفهم الأيديولوجى من مشروع الكتابة؟ وقد استوجب ذلك استرجاع الأيديولوجيات الخاصة بفلسفة التنوير والتى لها علاقة مباشرة بالحملة؛ على أساس أنها أثرت بشكل مباشر على فكر العلماء الذين تصدوا لكتابة المؤلف. كما عالجت الدراسة المبررات السياسية التى تشدق بها الفرنسيون آنذاك للاستحواذ على مصر. ولم يكن الغرض من الدراسة هو اجترار الأسباب التاريخية المعروفة لنا جميعا[4]، والتى طالما استعرضتها كتب التاريخ فى مناهجنا القومية، وإنما الكشف عن الإطار الفكرى الذى أدى إلى هذه الحملة ونتائجها الخطيرة على المستوى القومى والإقليمى وعلى مستوى العلاقات المصرية الفرنسية، بل وعلاقة الشرق بالغرب بشكل عام؛ لكونها فاتحة الحركة الاستعمارية التى ستنطلق من أوروبا إلى الشرق فى القرن التاسع عشر.

على حين عالج الجزء الثانى من الأطروحة الأسباب التى جعلت من هذا النص وثيقة تاريخية هامة من خلال الإجابة على سؤالين: كيف تم الوصف؟ ولماذا كان الوصف بهذه الكيفية؟ فبالرغم من أن عنوان المؤلف يعبر بشكل تام عن مضمونه – فإن موضوع الجزء – محل الدراسة- والمعنى بوصف مصر، أثناء وجود الحملة بها- يظهر مصر كما تراها العين الفرنسية: فالكاتب يعرض بالفعل وجهة النظر الفرنسية عن علاقة الإنسان بالأرض والعلاقات الأسرية ومختلف مظاهر الحياة اليومية والتركيبة الاجتماعية والتقاليد والدين، إلخ.. وبالتالى فإن هناك سؤالا يفرض نفسه: إلى من يتوجه الخطاب ؟ أو من هو المتلقى الذى يراد إخباره بحقيقة معينة والتأثير عليه فكريا ونفسيا؟ إن الرسالة موجهة – قطعا- إلى الرأى العام الفرنسى وبالأخص المشتغلين بالسياسة آنذاك. فإذا كانت النصوص تتضمن نفس الأفكار الرئيسة التى تسيطر على الكتاب وتظهر فى الغالب تعصبا ورفضا للآخر، فإنها أيضا دعوة بل تحريض للإدارة الفرنسية على العودة مرة أخرى وعدم التخلى

عن مصر. على حين تجاهل الخطاب القارئ المصرى الذى يمثل الطرف الآخر فى القضية؛ إنها نظرة فرانكو- مركزية تفرض السياسة وتحدد المصير. ومن هنا حاولت الدراسة استثمار التحليل الخطابى للتحقق من استنتاجاتنا الأولية بعد تبين الدلالة المنطقية الصادرة عن النص.

وقد راعينا فى اختيارنا للعينة النصية موضوع الدراسة أن تكون الموضوعات منصبة تماما على حالة مصر فى القرن الثامن عشر، وألا تكون موضوعات نظرية ذات طابع عام يمكن أن تنطبق على أى حالة أخرى. وعليه، فقد حصرنا الاختيار فى عشرة نصوص[5] مكونة من 1020 صفحة، حاولنا تحليل مضمونها بعناية بهدف التوصل إلى سيمانطيقا النصوص؛ حتى نتحقق من مغزاها كوثيقة تاريخية لها دلالات خاصة.

أولاً: السيف والقلم

1- فلسفة التنوير والحملة على مصر:

لا يمكن استحضار الملابسات السياسية التى أدت إلى الحملة دون الإشارة إلى فلسفة التنوير؛ لأن الذين خططوا للحملة سليلو الثورة الفرنسية (1789) ابنة التنوير، وقد كانوا من أشد المؤمنين بها، وكانوا يستلهمون أفكارهم من المبادئ الثورية التى اعتنقوها كالإيمان بالحرية والعلم والتقدم. وإن كان هناك تفاوت كبير بين مايقولونه ومايفعلونه، ولعل الوجه الأمثل الذى جسد بحق التناقض بين القول والفعل هو وجه بونابرت نفسه.

وقد استخلصنا -عموما- خمسة مفاهيم أساسية من فلسفة التنويركان لها أثر بالغ فى توجيه فكر كتاب الدولة الحديثة؛ وهى: التقدم، الحضارة، الحرية، العالمية، الاستبداد[6]. وتتلخص عقيدة التنويريين فى أنهم يقسمون الحضارة الإنسانية الناتجة عن الفكر البشرى إلى مستويات: فهناك تطور تاريخى وإنسانى نتج عنه أن أصبحت الحضارة الأوربية فى قمة هذه الحضارات جميعا؛ فهى تمثل المرحلة الأخيرة من

مراحل تطور الحضارات، وهى تعكس الحركة التقدمية المتصاعدة للنتاج الإنسانى، والمطلوب بناء على ذلك هو إعادة بعث الحضارات القديمة وترميمها، وهذا ماينطبق تماما على الحالة المصرية بما أنها مهد الحضارات القديمة ودرة الحضارة العربية؛ ولذلك فإن ماضيها المجيد لابد أن يضمن لها حسب مفهومهم – مستقبلا مبهرا وكأن أحد أدوار الحملة الفرنسية هو إعادة العلوم والفنون إلى موطنها الأصلى..

وهكذا يبدو منذ الوهلة الأولى أن حقيقة استغلال الشرق فى الفكر السياسى الغربى ظل دائما مغلفا بتبريرات فلسفية، ظاهرها خير وباطنها استغلال للشعوب. إن انتحال المبادئ الثورية لاغتصاب أرض الغير وإرادته يظل أحد سمات الحملة الفرنسية على مصر. لكن المدهش أن الشعب المصرى وعلى رأسه فقهاؤه وعلماؤه وعوا –تماما– هذه المفارقة ولم ينخدعوا بالصيغ الرنانة التى رددها القائمون على الحملة؛ والدليل هى الثورات الشعبية التلقائية تارة والمنظمة تارة أخرى التى قام بها المصريون، والوحشية التى قمع بها الفرنسيون هذه الثورات. إن الفكر الفلسفى والفكر السياسى متلاصقان هنا بشكل حميم. لقد كانت الأفكار تقود العالم من حولهم: يطرح الكتاب الرسومات التخطيطية من الناحية النظرية، فيتلقفها الثوريون ويحاولون تكييفها حسب مايقتضيه الموقف اللحظى.

فى هذا الوقت بدأت تتكون فى فرنسا الأيديولوجية القومية التى سيفتخر بها الفرنسيون ويسعون لنشرها فى أركان الكون برمته ومغزاها: أن الشعوب لابد أن تتحكم فى مصائرها –وأن الفرنسى " البطل " صاحب رسالة عالمية وهى تحرير الشعوب المقهورة – على الطريقة الفرنسية – وبث المفاهيم الثورية التنويرية الفرنسية إلى كل أرجاء العالم! وبما أن المشرق كان الآخر الأكثر قربا من فرنسا فقد وقع عليه الاختيار؛ ليكون أول من يخصه الفرنسيون بحملتهم التحريرية. لقد كان المفكر المنتمى إلى عصر التنوير رجلا عقلانيا يعتقد فى التقدم الإنسانى، وهو –قصرا وبالضرورة– الفرنسى الأوربى المؤمن بتفوق حضارته وبالواجبات التى تستتبع

هذا التفوق تجاه الشعوب الأخرى. ويرى الرجل التنويرى "برنامج الزحف الحضارى" على أنه برنامج طليعى لابد أن يغطى بقية العالم، وأن تكون فرنسا هى مركز الإشعاع فيه، لأنها مهيأة لتصديره من منطلق أن إعادة بناء الحضارات المندثرة لن يتحققق إلا من خلال نزعتها الاثنية. وكان قدر مصر أن تكون أول أرض غير أوربية تواجه هذا التحدى وهو التحضر عبر الفرانكو- مركزية.

كم من مرة تعثرنا أثناء قراءة الدولة الحديثة فى مصطلحات ومفاهيم من تلك التى ألصقها فلاسفة التنوير بالمشرق وبمصر؛ فهذا فولتيرVoltaire فى "البحث فى التقاليد"[7] يربط بين الخرافات والتخلف والطقوس المصرية التى تستحق الاحتقار (على حد قوله)، بل إن كثيرا ما كان المؤلفون يستشهدون بجمل أو حتى بعناوين بعض المنشورات المعروفة[8] لهؤلاء الفلاسفة الكبار لتأكيد أو تبرير وجهات نظرهم فى وصف مصر، كما كانوا -أحيانا- ينقلون عنهم نقلا حرفيا[9]. كذلك ساهم المفكر السياسى مونتسكيو Montesquieu (1689-1755) بوجه خاص فى نشر فكرة "الاستبداد الشرقى"، ففى كتابه روح القوانين "L'Esprit des Lois"، يظهر أن الحكم المستبد يتناقض مع الحكم الاعتدالى. إن أوربا تتميزبالنوع الثانى. أما المشرق فيتصف بالحكم الأول حتى اعتبرت الإمبراطورية العثمانية هى النموذج التام للنظام المستبد بمظهره العسكرى. من هنا، أخذ الثنائى "شرق / غرب" شكله الحديث كتناقض ثقافى اجتماعى يتعدى الاختلافات المؤسسية البسيطة بحيث لم يعد التفاوت بين الكيانين تاريخيا فقط، مثلما كان فى الماضى، بل أصبح أيضا تفاوتا ثقافيا لايستهان به. وسوف ينحت المفكرون الفرنسيون - من الآن فصاعداً - صورة للآخر من خلال مفهوم "الاستبداد الشرقى" الذى سيصبح أحد المحاور التى ترتسم حولها صورة الذات فى مقابل الآخر.

ولا يمكن إغفال اسم المستشرق فولنى Volney (1757- 1820)[10] عند الحديث عن الكتابات والآراء الخطيرة التى وجهت خطط الغزو وساهمت فى تشكيل صورة معينة عن مصر فى ذهن المسئولين عن الحملة سياسيا وعسكريا؛ ففى

كتابه "رحلة إلى مصر وسوريا"[11] ينتقد بعنف النظام المملوكى ويؤكد أن "مصلحة الشعب المصرى فى أن تسلم مصر إلى أياد أخرى". عموما كانت الصورة المنقولة عن مصر، فى مجملها، صورة بلد متخلف تسوده الفوضى والبؤس والظلام.

ويمكن لنا مما سبق أن نتتبع المنطق المبرر للغزو: إذا كانت المجتمعات الشرقية الخاضعة للإمبراطورية العثمانية تغوص فى الانحطاط والظلامية فإن التدخل الخارجى وحده هو الذى يسمح بتحريرها من هذا التأخر. وهذا هو المبرر الفلسفى الذى سوف يستند إليه بونابرت لغزو مصر، فلنستمع إليه وهو يتحدث إلى الشعب المصرى: "لقد كان لديكم فيما مضى مدن عظيمة وقنوات كثيرة وتجارة رائعة.. فمن الذى هدم كل شىء؟ إنها أنانية وظلم وطغيان المماليك"[12]. كما أن التحليل الخطابى للبيان الذى ألقاه بونابرت على المصريين بمجرد استيلائه على الإسكندرية يظهر الازدواجية بل الالتباس الذى صدر من المتحدث حول مفهوم الحرية. وخلاصة القول: إن حصول المصريين على حريتهم من المماليك طريقها الوحيدة هى قبولهم الاحتلال من الفرنسيين. فالمحرر المحتل هو الذى سيوفر للشعب المصرى حياة رغدة كريمة ويعيد إليه أمجاد حضاراته السابقة! وهو نفس المعنى المكتوب صراحة فى المقدمة التاريخية لكتاب وصف مصر التى عرض فيها فورييه Fourier معظم الأفكار التى استعرضناها سابقا. ولعل المقدمة التاريخية فى كتاب وصف مصر تحتوى على محصلة لكل هذه الأفكار، حيث تعرف الحملة على أنها " المشروع الذى سيعيد العلوم إلى ضفاف النيل بعد أن نفيت طويلا بعيدا عنه".

والواقع من المقارنة بين الكتاب المتميز الذى صدر عن فلسفة التنوير والذى عبّر بحق عن الفكر السائد آنذاك – وهو الأنسيكلوبديا L'Encyclopédie[13] – وكتاب وصف مصر[14]؛ تجلى العديد من الملاحظات: حيث يوجد تطابق واضح من ناحية الشكل والمدة التى استغرقتها الكتابة بالنسبة للعملين بحكم المفهوم العملى أوالصيغة التى كانت سائدة آنذاك؛ وقد أراد القائمون والمشتركون فى كتابة العملين أن يكونا عملين علميين يتميزان بالعقلانية ويتبعان المنهج العلمى فى البحث

والتمحيص. لذلك يمكن القول، من الناحية الفكرية: إن الأنسيكلوبديا هى الشاهد الأصيل على عصر التنويرمثلما يعتبر وصف مصر شاهداً على علماء الحملة الفرنسية. والكتابان يتميزان بأنهما عملان جماعيان تولاهما مجموعة مختارة من العلماء والمفكرين الممثلين لعصرهم؛ فإذا نرصد فى الأنسيكلوبديا النظريات السياسية والفلسفية التى تعكس فكر التنوير، نجد أن وصف مصر كان التطبيق العملى لوجهات نظرهم على الحالة المصرية.

وعند محاولة التعرف على صورة أوربا فى مقابل صورة مصر فى الأنسكلوبديا، جاء تعريف أوربا على النحو التالى: "لايهم أن تكون أوربا هى أصغر جزء فى أجزاء العالم الأربع من ناحية المساحة لكن أهمها من حيث التجارة والملاحة والخصوبة والصناعة وشعبها المستنير بمعرفته للفنون والعلوم ومختلف المهن "[15]. فى مقابل هذا المدح، جاءت صورة مصر وصفا لبلد متخلف قابع فى قاع السلم الحضارى: "إن تاريخ مصر –عامة– تاريخ مشوش يتسم فيه الدين والفلسفة على وجه الخصوص بالغموض والعتمة. لقد كانت مصر مهدا للمعتقدات الباطلة وللخرافات كما كانت مهدا للعلوم والفنون....[16] إلخ.. فى هذه الصفحة المستفيضة فى التعريف بمصر تكرر لفظ "خرافات" superstition خمس مرات وصفة "خرافية" superstitieuse خمس مرات، وجاءت كلمة "ساحر" magicien مرة. أليس من المنطقى إذًا أن تتعارض الخرافات المصرية مع الاستنارة العلمية الأوربية ؟ بالإضافة إلى ذلك، وجد كاتب المقال أن "مصر لم تعد رائعة كما كانت فى الماضى [....] لقد كانت فى السابق بلدا يثير الإعجاب، أما اليوم فهى بلد يدعو للدراسة ". وبالفعل، هذه الدعوة أو التحريض على اكتشاف مصر ودراستها ستجد صداها بعد عقود قليلة فى مشروع كتاب وصف مصر.

على أن صورة مصر فى عيون الفرنسيين لم تأخذ وضعها كمطمع سياسى فجأة فى القرن الثامن عشر؛ فقد ارتسمت صورة الشرق العربى على صفحات الكتب الأدبية ومن خلال روايات الرحالة المغامرين والتجار وماشاهدوه فى أسفارهم،

حتى إن بعضهم تعلم اللغة العربية وقرأ الكتب التقليدية عن الحضارة العربية الإسلامية، إلى أن صدر للقنصل العام الفرنسى فى مصر بونوا دى مايبه Benoît de Maillet كتابا فى وصف مصر، وكانت هذه هى المرة الأولى التى يتم فيها إلقاء نظرة شاملة على هذا البلد فى محاولة أقرب إلى العلمية من سابقاتها.[17]

لم تكن صدفة إذًا أن ينشأ الاستشراق كعلم جاد فى نهاية القرن الثامن عشر، فقد عكس الاهتمام الشديد الذى يوليه التنوير للعالم العربى والإسلامى، وأظهر رؤية الآخر كما تصورها فلاسفة التنوير، حيث شغل التاريخ المقارن حيزا واضحا فى فكرهم، وهو نمط من الكتابة يهدف إلى استخلاص النتاج الحضارى البشرى عبر العصور والأمكنة، ووضع كل فى مكانه المناسب من خلال التصنيف غير الموضوعى. من هذا المنطلق يمكن اعتبار "وصف مصر" استمرارا لنوعية أدب الرحلات، والقول: إن "الدولة الحديثة"هى بالفعل تجميع لخلاصة ما قيل عن الآخر فى القرون السابقة وكأنها طرح جديد - دون أن يكون مختلفا- لنفس الآراء المسبقة عن مصر، وهى إضافة إيجابية على أية حال لصالح "وصف مصر" تميزه عن الكتب الفردية للرحالة السابقين، فالأمر هنا يرجع إلى فريق عمل منظم ومتكامل تحول معه المؤلف إلى مشروع قومى تبنته الإدارة الحكومية فيما بعد حتى أخرجته للنور.

هكذا تحول العرب من موضوع للتأمل إلى موضوع للجدل والتفكير، إلى أن اصطدم علم الاستشراق الذى قام فى بداياته على الفضول الإنسانى والرغبة فى معرفة الآخر بالضرورات السياسية ورغبة أوربا فى الزحف نحو العالم القديم، وتبلور –فعلا- على مستوى الخطاب والممارسة عند غزو مصر. لذلك فإن بونابرت عندما أتى إلى مصر لم يبتكر شيئاً وإنما ترجم على أرض الواقع حصاد المعرفة الاستشراقية لعصره فى أسس محددة. هذه هى الخلفية الفكرية التى وجهت المخططين للحملة نحو غزو مصر فى نهاية القرن الثامن عشر.

بيد أن أحد أسباب سقوط تاليران Talleyrand - وزير العلاقات الخارجية -

وأحد المخططين الرئيسين للحملة عام 1793 - هو فشل المغامرة المصرية: لقد تصور القائمون على الحملة من الدبلوماسيين (وعلى رأسهم تاليران) والعسكريين (وعلى رأسهم بونابرت) بالفعل- أن غزو مصر نزهة طريفة ستقابلها بعض المتاعب التى سيسهل التغلب عليها فى حينها، إلا أن الأحداث اللاحقة كذبت كل تنبوءاتهم وفشلت الحملة فشلا ذريعا.. ولعل مذكرات القادة الفرنسيين الذين عاشوا الأحداث – ومنهم على سبيل المثال لا الحصر دوجا Dugua نائب مينو Menou – قد كشفت عن يأسهم الشديد وتحطم معنوياتهم، يقول دوجا: " لقد كانت تنقصنا الأموال ثم الأموال ثم الأموال، والرجال والمعدات وصداقة السكان.. فهل سيحقق لنا رجوع الحملة من سوريا كل ذلك؟ هذا ما أتمناه من كل قلبى، لكنى أعترف لكم أنى أطوق شوقا لإنهاء هذه المأساة التى تفقد كل يوم بعض فاعليها النشطاء[18]. فما جدوى إصدار موسوعة شاملة كهذه بالرغم من الفشل الذريع الذى لاقته الحملة على الصعيدين العسكرى والسياسى؟ لقد بدأت رحلة المؤلف مع إنشاء "لجنة العلوم والفنون".

2- لجنة العلوم والفنون:

قبل مجيء بونابرت إلى مصر، قام بتجنيد بعض شباب الدارسين وضمهم إلى الحملة حتى يسند إليهم التنظيم الإدارى بعد وصولهم، فينشئون الطرق والكبارى والقنوات. كان بونابرت يعتقد أنه سيستقر للأبد فى مصر ويجعل منها مستعمرة فرنسية أو مقاطعة تابعة للإدارة الفرنسية على غرار ما سوف يحدث فى الجزائر فيما بعد (1830)، لهذا كله كان يستبق الأحداث وتصور أن مصاحبة العلماء والدارسين للحملة أمر لاغنى عنه. لذلك فلما غادرت الحملة ميناء طولون Toulon سرا فى مايو 1798كان على متن السفينة أربعة علماء معروفون هم: مونج Monge عالم الهندسة الوصفية، بارتوليه Berthollet وتخصصه الكيمياء الطبيعية، فورييه Fourier أستاذ الرياضيات فى المدرسة الهندسية العليا (والذى سوف يخترع فيما بعد نظرية التحليل الرياضى التى سوف تخلد اسمه)، وعالم الفلك نوويه Nouet. وهناك ثلاثة

أسماء من الشباب الذين شاركوا فى الحملة سوف يكون لهم شأن عظيم بعد انتهاء الحملة ورجوعها إلى فرنسا؛ هم: مالوس Malus، جؤوفروا سانت إيلير Géoffroy Saint – Hilaire وسافينى Savigny. ثم جمع بونابرت الأعضاء البارزين من هيئة العلماء ومعهم كبار الشخصيات فى الإدارة والجيش فيما أسماه "المعهد المصرى"، وهى الصيغة الاستعمارية للمعهد الفرنسى الذى كان موجودا أصلا فى فرنسا وكان يضم هيئة من علمائها، وهناك اثنان من أعضاء المعهد المصرى ممن كانوا أساسا أعضاء فى المعهد الفرنسى هما: مونج Monge وبارتوليه.Berthollet ولإيواء كل هؤلاء، استولى الفرنسيون على أحد قصور وجهاء القاهرة، وهو بالتحديد قصر حسن بيك الكاشف، وجعلوه مقرا للمعهد، وعلى مقربة منه وضعوا المطبعة والمعامل اللازمة لهم.

افتتح المعهد يوم 23 أغسطس 1798، وكانت أهدافه الرئيسة هى:

1) إيجاد وسيلة لتحسين مستوى أفران الخبز الخاصة بالجيش.

2) إيجاد طريقة لمد الجيش بالمياه اللازمة.

3) التأكد من وجود المواد الأولية لتصنيع البارود الخاص بالمدفعية فى مصر.

ويتضح – جليا- من الأهداف التى وضعها الفرنسيون لأنفسهم عند إنشاء المعهد كيفية تسخير العلم لخدمة أغراضهم العسكرية والاستعمارية، وأن المعهد لم يكن على الإطلاق مكانا للبحث العلمى المطلق، يراد منه تقديم الخدمات للمصريين، وإنما كان مقصورا على دراسة أحوال الجيش الفرنسى وتلبية احتياجاته. كان بونابرت يولى اهتماما شديدا بهذا المعهد حتى إن إمضاءه على الأوراق الرسمية كان: " بونابرت، عضو المعهد، القائد العام للجيش ". وبناء عليه فإن الفرنسيين الذى أتوا برؤية محددة للاستيطان الدائم، أرادوا من خلال الدراسة والبحث أن يتعرفوا على طبيعة البلد الذى يرغبون فى الاستحواذ عليه؛ فكانت الدراسة هى الوسيلة الأنسب من وجهة نظرهم – إلى جانب السلاح – لتمكينهم من هذه

الأرض التى يطمعون فيها، خاصة بعد أن اصطدموا بمقاومة شعبية متأججة، لاتخمد ولاتلين، جعلت مهمتهم شاقة بحق.

ويمكننا أن نذكر على سبيل المثال لا الحصر من فرق ولجان البحث الخاصة مجموعة العمل الأولى التى وضعت تحت سيطرة مهندس الكبارى جيرار Girard فى مارس 1799، وهم مجموعة من الشباب الذين كلفوا بدراسة نظام الرى وحركة النيل وكل مايخص مياه النهر، وإلى جانب هذه المهمة الهيدروغرافية البحتة، كان عليهم جمع كل البيانات المتاحة عن التجارة والزراعة والفنون والآثار[19]. ومما يثير الدهشة هذا التضافر البين والمنظم بين مجموعات الباحثين التى كان عليها اتباع الجيش. فى المرة المذكورة مثلا كانت الأوامر العسكرية قد صدرت من بونابرت على أن يقوم الجيش بمطاردة مراد بك حتى النهاية إلى آخر مصر العليا للقبض على هذا المناور الرهيب الذى دوخ من لاحقوه، بقدرته الفائقة وذكائه الشديد. فى نفس الوقت كان على الباحثين التابعين لخطوات العسكريين أن يدونوا ملاحظاتهم عن تأثير نهر النيل على خصوبة الأراضى المصرية بشكل عام. إلا أن روعة المواقع التى توقفوا عندها والمزارات الأثرية النادرة جذبت هؤلاء الشباب الهواة المتحمسين فقرروا من تلقاء أنفسهم أن يبادروا بعمل منظم وجاد، فكانوا ينتهزون فرصة أى عمل يوكل إليهم، بخصوص هيدروغرافيا المكان، ليدفعوا ببحثهم خطوات للأمام فينقبون ويدونون ويرسمون. ويبدو أن ذلك كان يثير حفيظة رئيسهم وسخطه- كما اتضح من بعض مراسلاتهم الخاصة؛ حيث كان جيرار Girard يتهمهم بإضاعة الوقت فى أشياء غير جادة وغير مطلوبة منهم[20]. كانت الدراسة إذًا فى بداياتها تلقائية صدرت عنهم بعفوية كرد فعل للروائع التى قابلوها على طول الوادى، إلى أن جاءت اللجان التالية المكلفة برفع الرسومات الأثرية بدءا من سبتمبر 1799. هكذا كانت لجنة العلوم والفنون الفرنسية المصاحبة لجيش الاحتلال هى الأولى من نوعها التى صاحبت حملة عسكرية فى التاريخ الحديث.

تشتمل الأطروحة بعد ذلك على فصل فى الجزء الأول قدمنا فيه ترجمة تفصيلية

شاملة لسيرة الكتاب الذاتية[21]، ونستبقى هنا من جملة الملاحظات التى قدمناها فى الأطروحة ملحوظتين أساسيتين:

1) أن الجزء الخاص بالدولة الحديثة هو من إنتاج موظفين فرنسيين وبعض الدارسين الذين تلقوا الأوامر من القيادات العسكرية بمتابعة الدراسة عن مصر، وليس نتاجا علميا لعلماء متخصصين فى مجالاتهم.

2) أن عددا من الشباب الذين شاركوا فى الكتابة سوف يصبحون بعد عودتهم لبلادهم ذوى شأن كبير، وسوف يحتلون مناصب سياسية أو إدارية هامة فيما بعد.

ومن ثم فالحديث عن القيمة العلمية لهذا الكتاب يتعين أن تؤخذ بحذر شديد؛ ذلك لأن أهمية كتاب وصف مصر لاتكمن فى مضمونه العلمى (نحن نعلم مثلا أن فك شامبليون للرموز الهيروغليفية بعدها بحوالى عقدين (1822) نفى كل التخمينات التى أتى بها كتاب الحملة عن مصر الفرعونية)، وإنما لكونه سباقا نحوالاهتمام البالغ بتغطية دولة ما بالفحص بأسلوب جديد لم يكن متبعا سابقا بغض النظر عن الأيديولوجية المستترة فى هذه الدراسة والنوايا الكامنة وراءها.

هذا التصور المبدئى الذى تم استخلاصه من خلال البحث فى أصل هؤلاء الكتّاب وانتماءاتهم بدأ يوجه تفكيرنا إلى نقاط معينة سعينا إلى البحث فيها فى الجزء الثانى من الأطروحة والخاص بتحليل الخطاب الموجه للجمهور الفرنسى، ماهيته وأدواته. والنتيجة الأساسية لهذا التحليل تميط اللثام عن بغية مؤلفى وصف مصر فى تشويه حاضر مصر وماضيها القريب حتى يمكن تبرير التواجد الفرنسى، بل وإثبات أن هذا التواجد ضرورة لامفر منها؛ لإنقاذ هذا البلد الذى كان بلدا حضاريا، ولم يعد، بفعل الظروف السياسية والتاريخية الأخيرة التى نهبته وحطت من شأنه. ومن ثم فإن الفرنسى "البطل" سوف يعنى بتغيير الحال تغييرا جذريا، وسبيله الوحيد لبلوغ هذا الهدف النبيل هو تحويل مصر إلى مستعمرة فرنسية! ولابد مع فشل المشروع الاستعمارى للفرنسيين وطردهم بشكل مخزٍ من مصر

واستعدادهم لنشر المقالات فى فرنسا، بعد الجلاء بعدة سنوات، أشعل الإحساس بالندم والأمل فى العودة وذكريات المجد الوهمى. لذلك كان لابد من غرس كل هذه الأحاسيس بين السطور والتلويح بأن خسارة مصر فادحة بخروج الفرنسيين وأن عودتهم ستظل أملا مرجوا للطرفين المستعمِر والمستعمَر. وقد أكد التحليل النصى فى الجزء الثانى من الأطروحة الانطباعات الأولية العامة التى استشعرناها منذ الوهلة الأولى فى الجزء الأول بعد تحليل الظروف التاريخية والملابسات السياسية التى أدت إلى غزو مصر.

ولعل السؤال الذى يطرح نفسه هو: متى نشأت فكرة " الدولة الحديثة"؟ ومن المحرك الرئيسى للفكرة؟ لقد ترك بونابرت الحملة فى حالة يرثى لها تحت قيادة كليبير Kléber كقائد عام للجيش، وفر عائدا إلى فرنسا، بحثا عن موضع آخر يسمح له بتحقيق الأمجاد التوسعية التى يطمح إليها. عندئذٍ، أصدر كليبير أوامره بتكوين " لجنة الاستعلام عن الدولة الحديثة":

" Commission des Renseignements sur L'Etat moderne".

لقد كان معظم أعضاء اللجنة من شباب العلماء الذين رافقوا زملاءهم العسكريين فى مصر العليا للقضاء على المماليك الفارين مع مراد بك. لكن مهمة هؤلاء كانت – بالتوازى مع العمليات العسكرية – تنصب على محاولة تدوين ملاحظاتهم عن عجائب الآثار المصرية ومايخص كل مظاهر الحياة الأخرى من سكان وتربة ومناخ وعادات، إلخ، وباختصار كل مايشاهدونه فى مصر قديما وحديثا. واجتمع كل من ساهم فى هذه المهمة تحت رئاسة نوويه Nouet أكبرهم سنا يوم 22 نوفمبر 1800، واتفقوا على إنشاء جمعية علمية تقوم بتجميع كل ماتم اكتشافه فى مصر العليا. لذلك فالجزء المبتكر الخاص بكليبير هو إضافة لجنة تتولى البحث فى شئون مصر الحديثة إلى جانب من كانوا قد انكبوا بالفعل على البحث فى مصر القديمة. واقترح الحاضرون فى البداية تأسيس شركة مساهمة من أربعة عشر عضوا تأخذ على عاتقها فكرة إصدار الكتاب فى فرنسا، وأيد –كليبير– مبدئيا هذا

الاقتراح إلى أن تولت الحكومة – فيما بعد– تمويل المشروع برمته. وبالتالى فإن كليبير هو الفاعل الرئيسى فى مشروع وصف مصر عموما، وهو الذى أضاف الجزء الخاص بمصر الحديثة، وقد شرح باستفاضة أسباب الاهتمام الشديد الذى يوليه لهذا "المشروع الأدبى" – كما أطلق عليه – فى الخطاب الذى أرسله للحكومة الفرنسية بتاريخ 8 يناير حيث يقول: "إن دراسة حالة مصر الحالية سوف تقدم إضافة هامة للفلسفة والسياسة. إن القوانين والعادات والتاريخ والحكومة والصناعة والدخل القومى يحتاج لأن يدرس بشكل أدق مما قام به الرحالة الفرنسيون والأجانب الذين سبقوا الحملة، وقد جمعت الأشخاص المؤهلين للقيام بهذا العمل ومنحتهم السلطة والأدوات التى يحتاجون إليها."[22]

هكذا نشأت فكرة كتاب وصف مصر. والآن علينا أن نقترب أكثر لنتعرف على المشروع بملابساته الخاصة.

3- طبيعة النصوص:

بداية يمكن أن ننسب النصوص إلى مجالين متكاملين هما التاريخ والأدب؛ فالنص كثيرا ما يأخذ شكل صحيفة سفر على أنه يمكن النظر إليه أيضا كأدب فكر مزود ببعض العناصر التاريخية، بمعنى أن يوجه السرد لخدمة قضية بعينها. كما أن الهدف من الكتابة ليس حصريا لنقل معلومة ما عن مصر، وإنما هناك الرغبة فى التأثير المعنوى على رأى القارئ بصورة معينة. لقد صمم الخطاب بالفعل لتأكيد فكرة متكررة بإلحاح وهى أن المصريين لايستطيعون تخطى حالة التخلف التى يوجدون فيها؛ لأنهم حاليا فى الدرك الأسفل من السلم الحضارى: فهم جهلاء يؤمنون بالطلاسم والتعويذات ويتمسكون بالخرافات[23]. وإذا كان الأمر كذلك فإن من مصلحة المصريين أن يقبلوا الاحتلال الفرنسى؛ ففرنسا هى الوحيدة التى سوف تنقذهم؛ لأنها الوحيدة التى تملك العلم اللازم لتحرير المصريين من عبوديتهم.

ولقد استخلصنا أيضا من تحليل الخطاب الموجه – عبر الجمل التى تم تركيبها

لتنم عن إيماءات وإيحاءات معينة - فكرة أن رحيل الفرنسيين عن مصر كانت بلاءً على المصريين؛ لأنه حرمهم من الحرية التى رمى إليها الفرنسيون وأوقف إعادة بناء البلاد. وهكذا يجمع الكاتب الأدلة التى تبرهن على صحة فكرته مع زعم الحياد التام، وسبيله إلى ذلك – ضمنا أو تصريحا – هو عقد المقارنات المستمرة بين الغازى المتحضر والمغزو المتخلف. وبالرغم من أن التقارير والملاحظات التى سيقت من خلال الكتابة تأخذ شكل الوصف البرىء إلا أنها تعد فى الحقيقة أحكاما تقويمية. ويلاحظ أيضا فى أكثر من موضع تمثل أوربا فى الوجود الفرنسى وكأن فرنسا هى التى تنوب عن أوربا فى مصر.

ثم إن أحد العيوب الكبرى لدى المصريين أنهم يرفضون الخضوع للفرنسيين، ويرفضون كل ما ليس عربيا، بل يفخرون بكونهم بدوا ويشعرون إزاء الأوربيين بالاحتقار الجم. فهذه القرى البسيطة – باللعجب – ترفض بمنتهى الجسارة والتهور إعطاء الفرنسيين الضرائب والعطاءات المفروضة للفرق العسكرية الفرنسية التى تمر عليهم، أما شيوخ القبائل فهم يخطئون خطأ كبيرا؛ إذ يساندون المتشردين من أبناء عشائرهم ضد الحكومة الفرنسية. وكان لابد لهم أن يفهموا أن الضرائب المفروضة عليهم من قبل الفرنسيين تتيح لهم ضمان الحماية والاستقرار[24].

ومن الأساليب اللغوية التى لجأوا إليها فى التعبير: اللجوء إلى الغلو الذى يعكس التعصب، كوصف الموسيقى المصرية بأنها "تستفز الذوق السليم وتخدش الأذن "[25]. هناك أيضا السخرية كانتقاد الزى الشرقى المزين بالسلاح واتهام الشرقيين بأنهم يولون اهتماما كبيرا لحمل السلاح وكأنه أداة للترف والوجاهة[26]. وعليه فقد بدا واضحا لنا عند التحقق من طبيعة النصوص أن لها وظيفة إخبارية يمكن حصرها فى فكرة أساسية وهى السعى إلى التغيير والتحويل – إن وصف مصر هو الأداة التى ستتيح للإدارة الفرنسية أن تبدل حال مصر وربما كان هذا هو أحد الأهداف الرئيسة للجان العلمية؛ أى اكتشاف ما هو متاح، والتحقق منه، ثم

دراسة وسائل تغييره لصالح فرنسا؛ كى تصبح مصر أول مستعمرة فرنسية فى المنطقة التى سوف تسمى فيما بعد بالشرق الأوسط.

ولايمكن أن نغفل الجانب النفسى فى نبرة الكتابة واختيار الألفاظ التى تشيع الإحساس بالمرارة بصفة خاصة؛ فهناك الندم الذى يرجع إلى الفشل. لنتذكر أن الفرنسيين طردوا من مصر وأنهم أعيدوا إلى بلادهم إلى متن السفن الإنجليزية. ثم إن "هؤلاء البدو" لم يتيحوا لهم فرصة أن يصبحوا أسيادا على مصر، بل تعاملوا معهم –تماما– كما تعاملوا مع المماليك والأتراك سابقا؛ على أنهم مغتصبون لهذه الأرض وليس لهم أى حق فيها. وهكذا فقد تضافرت الظروف لتمنع الفرنسيين من تحقيق حلمهم. أما عن وصف المقاومة الشعبية المصرية المتمثلة –على وجه الخصوص– فى العرب المقاتلين – الرعاة أو البدو الرحالة – فحدث ولا حرج، فإن رائحة الحقد والبغض تفوح من بين الكلمات كلما جاءت سيرتهم فى معرض الحديث.

وإذا كانت الإدارة الفرنسية قد تمسكت بإصدار هذا المؤلف عن مصر "Ouvrage sur l'Egypte" – كما أطلق عليه فى البداية – بالرغم من تغير النظام السياسى، فلعل ذلك كان محاولة لإبقاء أى شىء من الحملة وإعادة تركيب صورة فرنسا المتحضرة مع التذكير بمغزى حركتها التقدمية التى لاتهدف إلى مصلحة خاصة وإنما إلى فائدة عامة، وهذا باللجوء إلى العلم والمعرفة، وكأن تنفيذ مشروع وصف مصر وإخراجه للنور كان نوعا من أنواع التعويض عن الهزيمة العسكرية. بيد أن هناك ظروف خاصة أحاطت بالمشروع. فما هى الظروف التى ساهمت فى كيفية إخراج مؤلف وصف مصر، وما مدى تأثيرها على المضمون؟ إنها ملابسات السياق التاريخى، فهناك مشكلة أساسية أثرت تأثيرا بالغاً فى تنفيذ المشروع وهى توقيت النشر: لقد تمت كتابة النص بعد العودة إلى فرنسا بعدة سنوات، والمادة العلمية التى كانت متوفرة لدى الكتّاب هى بعض الملاحظات التى تمكنوا من تدوينها والتى استجلبوها معهم عند الرحيل.. أما المعلومات الناقصة فقد

استكملت باستحضار الذكريات، لذلك فإن النص ليس تقريرا آنيا للأحداث والأوصاف التى ينقلها، إنما لابد من أخذ هذا التباعد الزمانى والمكانى بعين الاعتبار.

لقد تدخلت الذاكرة لترتب الأحداث وتنتقى الأفعال حسب درجة أهميتها بالنسبة للحاكى سواء بشكل متعمد أو عفوى. وساهمت المسافة واختلاف السياق المكانى واختلاف الظروف السياسية فى تحديد التفصيلات والأولويات. ولابد أن نظرة الفرنسيين ورأيهم فى مصر، وهم موجودون فيها (مع كل الخلفية التى أوضحناها سلفا)، اختلفت عن نظرتهم إليها بعد العودة لديارهم، صحيح أنهم عادوا إلى وطنهم، لكن خيبة الأمل وانهيار مشاريعهم الاستعمارية، وسقوط نابليون قائد قواد الحملة، والإحساس بالمهانة- انعكس على أسلوب الكتابة.

ومن ثم فإن رؤية الآخر أو وصف الآخر كان يحكمها عوامل نفسية وسياسية وتاريخية متعددة لانستطيع إغفالها عن التحليل؛ فماذا يصف الكتّاب الفرنسيون فى النهاية؟ إنهم يصفون مصر التى فى مخيلتهم إلى جانب مصر التى رأوها، مصر التى طالما أسالت لعابهم ولم يتمكنوا من امتلاكها، إن جزءا كبيرا من الأفكار المتكررة فى النصوص تتوجه نحو قطب رئيسى وهو حتمية القضاء على عرب مصر[27]. فهذه الكتلة التى تكون الأغلبية العظمى من سكان مصر قد تصدت بجسارة للفرنسيين حتى الموت؛ ومن الطبيعى أن يلعنوها على طول النصوص. لذلك ليس غريبا ألا يذكر على صفحات المؤلف أى حدث اجتماعى أو سياسى من الأحداث التى عاصرت الحملة فى مصر بالرغم من أن الهدف المعلن للكتابة هو نقل مصر المعاصرة للحملة بطبيعتها وأحداثها. لكن التجاهل التام للأحداث المعاصرة يكشف ضمن مايكشف أن الصمت كثيرا مايكون موحيا ربما مثله مثل الإفصاح والتصريح؛ مما يؤكد التفسيرات التى أوردناها منذ قليل عن هذه المسافة بين زمن المشاهدة وزمن الكتابة، كما يفسر بعض التناقضات التى تميز كثيراً من النصوص؛ فأحيانا مانجد المؤلف يؤكد على فكرة كان قد رفضها منذ قليل فى نفس النص، أو أن يظهر اشمئزازه من شىء كان قد بهره أعلى السطور... وهكذا.

من ناحية أخرى، فإن قصر المدة التى أمضاها الفرنسيون فى مصر لاتسمح بالبحث الكامل أو المستفيض؛ لذلك فإن الدراسات تتضمن أوجه نقص كثيرة وهم يعترفون من آن لآخر فى معرض الكتابة بأن ضيق الوقت لم يتح لهم جمع معلومات من كذا أو الوقوف على كذا[28]. ولهذا أيضا تبدو مجموعة الدراسات الخاصة بالدولة الحديثة مبتورة متفرقة، وكثيرا ماتكون مكونة من مجموعة ملاحظات عامة وغير متأنية، حيث تم التركيز على بعض المناطق دون غيرها، وهى تلك التى ذهبوا بالصدفة البحتة للهجوم عليها مع الجيش الغازى؛ ولهذا فإلى جانب التقطع الزمنى هناك أيضا تقطع مكانى يعطى انطباعا بمجتمع متجزئ وغير متجانس اجتماعيا وجغرافيا وتاريخيا، على الرغم أن المجتمع المصرى كان من أول التجمعات البشرية المعروفة بتناغمها البشرى واستقرارها المكانى وثبوتها الجغرافى.

ويقول جومار Jomard فى نص " ملاحظات عن عرب مصر الوسطى "[29]:

"أنبه أن الملاحظات الشكلية التالية ملاحظات عامة ولاتخص سوى محافظات متفرقة، وأنا لا أزعم أنى أطرح لوحة كاملة عن تقاليد العرب المصريين"؛ ذلك أن اختيار المنطقة موضوع الدراسة كان يتم بالصدفة وحسب ماتمليه الظروف؛ فعلى سبيل المثال قد يكون النص المكتوب فى وصف مدينة قصير مثلا كان بسبب الوجود القهرى للمؤلف فى هذه المنطقة: لقد تشاجر المؤلف دبوا إيميه Dubois- Aymé مع رئيسه جيرار فنفاه إلى البحر الأحمر لتأديبه، وهناك أخذ إيميه يدون انطباعاته على البيئة المحيطة والسكان كنوع من أنواع التسلية وملء الفراغ[30]، نفس الشىء نستشعره ونحن نقرأ الوصف المكتوب عن مدينتى رشيد والإسكندرية. لم يكن المؤلفون هناك فى مهمة علمية لكنهم وجدوا هناك بالصدفة البحتة لظروف اضطرارية.

ونلاحظ أن المؤلفين لايضعون حدا بين ما يرونه ويقيسونه فعلا وبين مايشعرون به؛ فهم يطلقون العنان لخيالهم، خاصة حين يتواجدون أمام الآثار؛ فينبهرون

بروعتها حتى إن شارل جيلبسى Charles Gillipsie يقول فى كتابه "الآثار المصرية"[31]: "إن هؤلاء الكتّاب سوف يمثلون الرعيل الأول لتيار الرومانسية فى فرنسا فى بداية القرن التاسع عشر".

ثانياً: الشكل والدلالة

إن وصف الآخر يستلزم الحكم والتقييم اللذين لايخضعان –فقط– لكينونة الموصوف أو المفعول به، وإنما يعكسان –أيضا– ذات الواصف أو الفاعل وتفسيره الخاص للأمور. و فيما يخص قضية الوصف فى الدولة الحديثة، هناك عنصران متقابلان: الأنا الفرنسية فى مقابل الآخر المصرى. وفى هذا الجزء من الأطروحة تم معالجة مسألة تقييم الآخر والطريقة التى يستدعى بها. فلقد أدى هذا التقييم إلى تشويه صورة الآخر؛ وهى صورة سلبية فى مجملها يود المؤلف أن يعطيها عن مصر؛ لكى يصل فى النهاية بالقارئ الفرنسى إلى فكرة أن الاستحواذ على مصر عمل مشروع ونافع لها لأنه سيرتفع بمستوى هذا البلد، ويعبر به من ظلمات التخلف إلى نور التحضر؛ لذلك كان المؤلفون يلجأون أحيانا إلى حجج وبراهين بهلوانية لتفسير ما رأوه فى مصر. فكيف تم تركيب المعنى ؟ وما الموضوعات الأساسية التى ود المؤلفون التركيز عليها لتثبيت وجهات نظرهم؟

1- النظرة المركبة والصور الملتبسة [32]:

لقد اختصرنا النصوص إلى مجموعات من الموضوعات تتعلق كل مجموعة منها بقطب دلالى واحد، بعدما قمنا بترتيب أهمية هذه الموضوعات حسب الكمية أو حسب تكرارها (وهو مايدل على مدى أهميتها بالنسبة للمرسل) ؛ حتى تسنى لنا – بعد هذا الترتيب – التوصل إلى الأيديولوجية التحتية التى تحرك عملية الوصف وتقود رؤية الآخر. وبغض النظر عن المفارقات التاريخية[33] أو المعلومات المغلوطة[34] فإن هدفنا كان استخراج الموضوعات التى تعمد الكتاب التركيز عليها بالذات دون غيرها فى عملية الوصف.

وإذا سلمنا بقضية أن الخطاب الذى يصف الآخر هو جزئيا وصف للذات، فهذا يعنى أنه يمكن من خلال الكتابة عن الآخر أن نكشف عن نوع من أنواع التأمل داخل الذات نفسها، والتوصل إلى نوعية العلاقة بين الأنا والآخر. وهذه القاعدة المنطقية المعروفة تنطبق –جليا– على نصوص مؤلف "الدولة الحديثة"، فمن خلال المقارنة المستمرة تبدو العلاقة المصرية – الفرنسية علاقة تناقض، فكلما حط الكاتب من شأن الآخر علا شأنه الخاص فى نظره.

مَن المعنيون بالوصف فى "الدولة الحديثة" ؟ يتضح بعد تحليل النصوص أن السكان فى مصر يقسمون إلى ثلاثة أنواع: 1– العرب، 2– الفلاحون و سكان المدن، 3– الأقباط. ويتحدث الوصف طويلا عن مكانة كل منهم اجتماعيا، عن موارده الاقتصادية وموقفه السياسى. كما تنقل عادات وسلوكيات "المصريين" وعلاقاتهم مع عائلاتهم. كذلك أخذت البيئة المحيطة فى الاعتبار، والمناخ، والحيوانات والأثاثات، ويمكن إضافة عنصرين لهذا الوصف هما: الفرنسيون والديانة المحمدية (حسب تعبيرهم). الواقع أننا بصدد مسح عام ومثير اعتبره بعض الباحثين تمهيدا لمجال العلوم السوسيولوجية التى ستنطلق كعلم مستقل فى العقود التالية.

- **الصور المختلفة للعرب:**

يظهر الوصف أنهم جماعة تقيم فى مصر لكنها لاتمثل المصريين الأصليين. وبالرغم من أنهم يمثلون غالبية السكان إلا أن المؤلفين يستبعدون " القبائل العربية التى تسكن الصحراء "، والحديث هنا للفرنسيين –عند تعداد السكان ويضعون لهم بيانا منفصلا[35]. لكن المشكلة – بالنسبة للفرنسيين – هى أن العرب يتصرفون وكأنهم أسياد مصر ويعتبرون أن هذا البلد بلدهم وأن هذه الأرض ملك لهم. والطامة الكبرى هى أن البدو مازالوا يرون أنهم الحكام الشرعيون لمصر دون المماليك والأتراك. وواضح أن فكرة الملكية هذه تؤرق الفرنسيون بشكل خاص لما لها من انعكاس على التواجد الفرنسى على الأراضى المصرية. فى هذا الإطار الأيديولوجى، يأخذ أسلوب الكتابة أهمية خاصة عند التحليل فتلاحظ أن النبرة

تدل على اشمئزاز المرسل ورفضه التام للهيمنة العربية الصلبة التى لاتنكسر ولاتلين.

يرفض المرسل الوجود العربى فى مصر وحجته أن العرب قد وفدوا إلى هذه البلاد قديما، ولم يكونوا أساسا من السكان الأصليين فى هذا البلد؛ لكنهم استقروا فيه، وأصبحوا جزءا لا يتجزأ من نسيجه. لذلك يتساءل المرسل عن مدى شرعية التواجد العربى فى مصر: أليسوا قوما وافدين مثلهم مثل الفرنسيين الذين أتوا إلى مصر راغبين فى الاستقرار فيها؟ فلماذا إذًا يعتبر المصريون الفرنجة "دخلاء"، ويعاملونهم معاملة الأعداء الألداء، فى الوقت الذى يقبلون فيه - وبصدر رحب - التواجد العربى، ويصبغون عليه صفة الشرعية القومية؟ ما سر هذه الثقة تجاه العرب الذين وفدوا قديما إلى مصر؟ إن المصريين لايقبلون ولا يعترفون سوى بالعنصر العربى، حتى المماليك والأتراك، مرفوضون، وينظر إليهم المصريون على أنهم مغتصبون للأرض[36]. الواقع أن هذا الموقف يبدو غير عادل بالنسبة للفرنسيين، وهو يثير سخطهم بشكل واضح. لذلك يسارع الفرنسيون بتوبيخ هذه الطائفة وينسبون إليها كافة التهم السلوكية والعيوب الخلقية. فهم كذابون، جشعون، منتفعون، غشاشون[37]. ثم إن مصر - بالنسبة للعرب - غنيمة سهلة - يستغلونها أسوأ استغلال وينهبون خيراتها، إلخ. وتتكدس الاتهامات حتى تطول كل ما له صفة "العربية" بل إن مصر نفسها تستحق عقابا شديدا لأنها تتمسك بعروبتها حتى إن أول صفحتين فى النص الرابع[38]ومنذ السطر الأول، يصب المؤلف غضبه على الطبيعة الجغرافية لهذا البلد العربى: فهى بلاد فقيرة ليس بها نبات ولاماء كافٍ، وتتكرر كلمات مثل: "جدباء،قحط، جاف"، ثم يمتد الوصف ليشمل البشر "الشرسين" والمدن "القبيحة" والبيوت التى لاتتعدى الخيم. "يجول فيها العرب كالحيوانات الجائعة حول فريسة غنية".

والخلاصة أن هناك نوعا من التنافس الخفى على تملك مصر يثير سخط الفرنسيين ويدفعهم للمغالطة التاريخية والمنطقية؛ لأننا لو اتبعنا نفس المنطق الذى

يتبناه كتاب "الدولة الحديثة" يحق لنا أن نتساءل نحن أيضا عن أصل الفرنسيين ونسبهم: فهل ينتمون إلى الفرانك Les Francs، أم إلى الغاليين Les Gaulois ؟ أم إلى البوربون Les Bourbons؟ وهكذا.. ألم تنصهر كل هذه العناصر وتختلط وتندمج يوما ما حتى أفرزت العنصر الفرنسى الموحد والإنسان الفرنسى الكائن الآن ؟

يقول الوصف: إن هؤلاء العرب المتحدين الذين يمثلون عقبة أمام الاحتلال الفرنسى ويتصدون للوجود الأجنبى فى البلاد يحتقرون الأوربيين ويفتخرون ببدويتهم، وهم يرفضون دفع الضرائب الباهظة التى فرضها الفرنسيون فى مصر. ويتعجب الفرنسيون من حال المصريين الفلاحين الذين يستأمنون العرب، ويأمنون لحمايتهم، ولايطيعون الفرنسيين كما لا يرهبون العقوبة التى سوف ينزلونها عليهم إذا ما امتنعوا – بتحريض من العرب – عن السداد والطاعة. ثم إن هذه القرى بقيادة العرب تقوم بثورات عارمة ضد الفرنسيين البؤساء (والحديث كله للفرنسيين) الذين يمرون بهم. وكان الأولى بشيوخ القبائل أن يساندوا الفرق الحكومية المنظمة (ويقصد مندوبو الإدارة الفرنسية فى مصر) بدلا من أن يغيثوا المتشردين الذين يتوالون عليهم لنهبهم يوما بعد يوم[39]، وكأنه كان يتعين أن يعوا أن مصلحتهم تقتضى وقوفهم إلى جانب الحكومة الثابتة التى لاتتغير، ويطالبون بوقوفها معهم ضد المتسكعين وقطاع الطرق، فهم لايفهمون أن الضرائب التى يدفعونها تعطيهم حق الحماية من قبل هذه الحكومة: هذا هو الحل المقترح فى النصوص لنجاة مصر من براثن التخلف.

مع هذا فقد حظى البدو العرب بشىء من المدح فى بعض المواضع. فمتى قدموا العرب بصورة مختلفة على صفحات "الدولة الحديثة" ؟ فقط عندما يظهرون أنهم "محمديون" (أى مسلمون) اسما فقط ولايعيرون أى اهتمام لإقامة الشعائر الدينية. هنا فقط يتحول البدوى العربى فجأة إلى ملاك طاهر. لقد ظللنا طويلا حيارى أمام المدح المفاجئ الذى كان يقابلنا فجأة عن وصف بعض القبائل العربية، إلا أننا مع

تكرار القراءة والتمحيص توصلنا إلى السبب الوحيد فى هذا التحول المفاجىء، ففى كل مرة يتحول الذم إلى مدح وإطراء لطبيعتهم الشخصية أو لشكلهم لابد أن يحتوى النص على جملة أو جملتين تصف الممدوحين بأنهم "لايعرفون محمدا (ﷺ) إلا اسما فقط"[40] أو أنهم "يمتنعون عن الممارسات الدينية"[41]. فى هذه الحالة، لايصبح العرب "سفاحين" ومجرمين بالفطرة "كما كانوا فى المواضع النصية الأخرى، بالعكس، الألفاظ المستخدمة فى وصفهم حينئذٍ تفيض بالرضا والسلام والثقة. هذه الصورة الإيجابية التى يدخرها المؤلفون للعرب غير المتدينين أو الذين لايمارسون شعائر الدين الإسلامى هى الوحيدة من نوعها التى تخترق الكليشهات المتكررة عن صورة العرب السلبية، وكأن موقف هؤلاء العرب من الدين يشفع لهم عند الوصف ويسمح للمؤلفين بتبديل الصورة، أو كأنها اعتذار مقبول من المؤلفين عن خروجهم على الصورة المعتادة.

لاتتيح لنا حدود هذه الورقة التوقف عند التركيبة الاجتماعية والسياسية لطائفة العرب وعلاقات الفرد المختلفة بمحيطه البيئى والاجتماعى ووضع الطفل والمرأة والشيوخ داخل الجماعة[42]، لكن الحديث السابق يدفعنا بالأحرى إلى إثارة صورة الدين الإسلامى كما وردت على صفحات " الدولة الحديثة".

- **صورة الدين الإسلامى:**

الجرعة الكبرى فى الوصف مخصصة للذم والانتقاد اللاذع، وعليه يمكن تلخيص رؤية الإسلام فى صفتين، فهو يتصف إما بالتعصب le fanatisme أو بالخرافة la superstition.

من الملاحظ مثلا أنه عند وصف البرابرة أو سكان النوبة فى النص الثانى[43] يقوم الكاتب بالإطراء عليهم وعلى صفاتهم الحميدة – مقارنة بالعرب البشعين – إلا أن فيهم عيبا وحيدا هو أنهم "محمديون". أما العبابدة – وهم سكان مدينة القصير – فيقول عنهم الكاتب: "صحيح أنهم محمديون لكن البلد الذى يسكنونه والحياة النشيطة التى يقومون بها دوما تمنعهم من اتباع تعاليم هذا الدين [..]،

وعندما كان يقودنى الفضول إليهم كنت ألاقى منهم ترحيبا شديداً[44]".

"باختصار الإسلام تهمة تؤثر سلبيا على أخلاق من يعتنقونه، والدين الإسلامى هو منبع آلام المصريين المختلفة، فهو دين مدمر لأنه ملىء بالخزعبلات، وهو السبب فى الازدراء الذى يظهره السكان تجاه الآثار الرائعة الموجودة على أرض مصر والتى يتعامل معها الناس باستهتار شديد.

ثم إن التعصب الدينى عقبة كبيرة تحول دون اتخاذ الإجراءات الواقية ضد الأمراض المستعصية[45]. وهناك حديث مستفيض فى النص الرابع من عينة الدراسة[46] عن التعويذات والسحر. أما فى النص السابع فتبدو الأمور أكثر اعتدالا إذ يقر المعلق أن العيب فى البشر الذين يدنسون دينهم بجهلهم وممارساتهم المشينة[47]. على أية حال، يوجد فى مصر عالم متخلف يتصف بالغرابة، عالم تملؤه الدراويش والسحر والتشنجات الناتج عن الخرافات والخزعبلات. وهكذا، تعوق المعتقدات الدينية التنمية العامة للمصريين – على حد قولهم – وتحول دون التقدم الفكرى لهذا الشعب[48]. وهذا يقودنا من جديد لنفس الفكرة التى نضطر لتكرارها بين الحين والآخر تمشيا مع الفكر السائد فى "الدولة الحديثة"، وهى فكرة أن التدخل الفرنسى فى مصر – والحال هذه – ليس مترفا أو غير ذى منفعة، لكن لابد من الحركة الاستعمارية حبا فى البشرية، وانقاذا لها من ويلات التخلف والجهل! ونشرا للحضارة الفرنسية السباقة إلى العلم والتحضر.

وهناك حيز رفيع خصص لمفهوم التسامح، وقد صادفناه بشكل استثنائى فى القسم الثالث من النص السابع[49] يقول فيه المرسل: "إن محمدا (ﷺ) كان سياسيا محنكا بحيث سمح لغير المسلمين أن يمارسوا دينهم بحرية". وعلى عكس الصراعات الدموية الرهيبة التى شهدتها فرنسا فى القرن السادس عشر بسبب انشقاق البروتستانت عن الكنيسة الكاثوليكية، فإن مصر – رغم اختلاف الديانات والملل – لم تعرف هذا النوع من الصراع الدينى؛ فكل جماعة تتقبل الأخرى وتبادلها الاحترام، ويقول المؤلف عن التسامح الدينى فى مصر: "ليس هناك اضطهاد من الأغلبية للأقلية والكل يتميز بالاعتدال الشديد"[50].

- صورة المصريين:

الفلاحون وسكان المدن:

هم العنصر الثانى المكون للشعب المصرى، بعد العرب، وهم السكان الأصليون ويمثلون الطبقة العاملة التى تعمل من أجل الآخرين ولاتمتلك شيئا؛ ووصفهم يقوم أساسا على صفتين:

1- الفلاح يمثل المصرى الأصيل.

2- الفلاح يتميزبالخزى والهوان.

إنهم بؤساء وحالهم يقترب من العبودية. لكن من المسئول عن هذه الحال؟ إنهم العرب. يقول المرسل[51]: "إن الفلاحين يئنون بسبب الإرهاق والعرق بدون ملابس أو خبز وذلك لإطعام هؤلاء السادة الوقحين (العرب). بينما يفيض كل شيء عن حاجة العرب الذين ينهبون الفلاحين". وفى نفس النص[52]: "وهكذا فإن الفلاحين مضطرون لتقبيل اليد التى تقتلهم".

أما عن سكان المدن، فإذا أخذنا سكان محافظات البحر الأحمر كمثال: فهم يغطون فى سبات عهود ماقبل التاريخ، يتغذون على السلحفاة والسمك النيىء وهم عشائر تقطن الكهوف. وبالنسبة للبرابرة فهم شعب فقير طيب نبيل، وهم يصعدون إلى مصر للبحث عن الرزق وتحسين مستواهم المعيشى. أما سكان القاهرة فيسكنون أماكن لاتصلح إلا لسكنى الكلاب – على حد قولهم[53] وهم مقززون من شدة البؤس والقذارة.

الأقباط:

يفرد لهم الكتاب وصفا خاصا بغض النظر عن كونهم ريفيين أم حضريين: هم المصريون الحقيقيون – حسب التعبير الوارد فى النص التاسع من عينة الدراسة[54]. لكن على طول النصوص المقترحة للدراسة هناك تناقض واضح فى طريقة وصف الأقباط؛ فهم تارة يمثلون الأقلية المقهورة، وتارة يتمتعون بحرية ملفتة للنظر فى

ظل نظام متسامح، وهم خبثاء متسلقون، وهم متوحدون ومنظمون مقارنة بالفوضى والتأخر العام، ويتمتعون بحرية التعبير والتقاضى وممارسة الحقوق والشعائر الدينية. باختصار - فى الوصف - محاولة يائسة للتحريض عن طريق إثارة الشفقة أحيانا والإطراء أحيانا أخرى والذم أحيانا ثالثة – كنوع من أنواع المعاقبة على موقفهم الرافض للوجود الأجنبى.

ومما لاشك فيه أن الفرنسيين حاولوا استمالة أقباط مصر فى أكثر من مناسبة على اعتبار أن الدين المسيحى يشملهم جميعا، بغض النظر عن كون مسيحيى مصر أورثوذوكس فى معظمهم، فى حين أن مسيحيى فرنسا ينتمون إلى الكاثوليكية. وقد ظهر ذلك فى مراسلات كليبير (خليفة بونابرت فى مصر) مع الإدارة الفرنسية[55].. إلا أن مسيحيى مصر لم يستجيبوا على الإطلاق للمزاعم الفرنسية، واعتبروا قضية التحرير قضية عامة تمس كل المصريين على حد سواء؛ مما أدهش كليبير وغيره من القادة الفرنسيين الذين فوجئوا خلال ثورتى القاهرة فى أكتوبر 1799 ومارس 1800 بتماسك عنصرى الأمة بشكل أزعجهم؛ حتى إننا نشعر بالمرارة والاستغراب التى عبر بها كليبر عن هذا الموقف حتى فى مراسلاته الخاصة[56]. وبغض النظر عن كل هذه الحقائق والمفارقات فمن البديهى أن يسود أى محتل على حساب الوحدة الوطنية عملا بمبدأ: " فرق تسد"، وهو تكتيك من السهل الإمساك بخيوطه عند القراءة المتأنية "للدولة الحديثة" فمن خلال الوصف تقسم الأمة إلى عناصر وشيع وتتأثر الرؤية بذات المرسل ومصلحته.

- صورة الفرنسيين:

فى مقابل هذه الصورة المتجزئة والمتخلفة للشعب المصرى كيف رسم المؤلفون صورة الفرنسيين عبر صفحات "الدولة الحديثة" ؟ إن الأفكار المطروحة فى هذا الخصوص تبدو وكأنها من البديهيات التى لاتحتاج التحقق منها أو التحقيق فيها. وهذه المسلمات يمكن تركيزها فيما يلى:

إن وصف العنصر الفرنسى يظهر أن هناك انتقاء فى المحمول الأيديولوجى؛

بحيث يحقق دوما المعادلة (مصر / فرنسا = التخلف / التحضر) وهى علاقة تناقض وتنافر مستمرين فاختيار الألفاظ الخاصة بوصف فرنسا والفرنسيين يدل على التقدم العلمى – الوحدة – الرقى، إلخ...[57] كثيرا مايولج الكاتب صورة فرنسا المتميزة تحت صورة مصر البائسة[58] حتى يصل الكاتب فى النص الثامن إلى مقولة: "إن هذا البلد البائس لن يكتب له الخلاص إلا إذا دخل تحت سيادة شعب متحضر.."[59] و"المصريون فى الدرك الأسفل من الحضارة الإنسانية ولن يستطيعوا المواصلة إلا إذا امتدت إليهم يد التحضر؛ لتنتزعهم من غياهب التخلف..."[60]. لقد كان الوجود الفرنسى سينقل مصر نقلة حضارية هامة فيحولها من مجتمع قبلى إلى دولة مؤسسية. هناك صورة مشوهة يقابلها صورة أسطورية تحمل وجهة نظر معينة وتدفع القارئ لتصديق الدواعى والمبررات.

الوصف هنا يقوم إذًا بوظيفة محددة، والتقييم السلبى يأتى من الإسراف والشطط ومن اللذعة غير المتوقعة التى تثير الدهشة والاستغراب فى عين القارئ الغربى. فلا شىء يحرك الذهن أفضل من البديهيات التى تعرضها النظرة العقلانية الأوربية عندما تقع على العموميات والأشياء العادية وهى نظرة تقوم على المقارنة، تنفى خصوصية الآخر وتبحث عن إدماجه فى دائرة الثقافة الذاتية.

2- من الاختلاف إلى التعصب: صور رفض الآخر

ينتج عن المقارنة أن يتبنى المؤرخ –دوما– نظرة ثنائية للعالم يحدها من الجانبين أنا والآخر. ويصبح القارئ فى حضرة عالمين متضادين يصطدم فيهما هنا وهناك، وتعتبر العادات المصرية فى هذا الإطار شىء بشع وعجيب.. فلنأخذ مثلا الطريقة التى يعرض بها الكاتب حفل زفاف عادى، إذا به يكتب واصفا العريس: "إن خطوته البطيئة والحزينة وهيئته الكئيبة توحى بأنه ذاهب لقضائه"[61].

وعليه، فإننا نرى على صفحات "الدولة الحديثة" نموذجا ثقافيا واحدا من خلال وصف يفخم فى البعض على حساب الآخرين، وهذا الأسلوب المغالى فيه لاينجح فى إخفاء النوايا وتضليل الباحث المتأنى – فالمقارنة تقوم دائما مع.. أو

بالنسبة إلى.. أو بدءا من الذات الفرنسية. ولاتقف المقارنة عند حد قياس مايرونه بما يعرفونه، لكن الأسلوب والنبرة ينقلبان تماما عندما تأتى سيرة فرنسا، فيسعى الكاتب إلى فرض قيمه باسم نظام مطلق لايعترف بغيره. إن كل ما يبتعد عن العرف الفرنسى أو يخرج عن المعيار نفسه يعتبر لاغيا.

من هنا فإن صورة فرنسا قد ارتسمت بشكل يضمن لها أن تظل المرجع العالمى الوحيد، وكأن العالم قد قسم إلى طيبين وأشرار[62]. والنتيجة المنطقية لهذا التقسيم ألا يكون البشر متساويين بأى حال من الأحوال. إن رفض النسبوية Relativisme هو أحد المظاهر الخاصة بمؤلف "الدولة الحديثة" ؛ فإصدار الأحكام الراديكالية واتخاذ موقف الرفض من كل ماهو مختلف يجعلان منه فى النهاية كتاباً بعيداً عن الموضوعية العلمية. لقد استوقفتنا بالفعل جملة على لسان أحد المؤلفين تشبه إلى حد كبير الاعتراف حيث يقول:"إن الرذائل تستوقفنا والفضائل تفوتنا[63]". وتتضح سمات الأحكام الذاتية فى التعميم وتكرار موضوعات دون غيرها كعناصر محركة للوصف. يعنى ذلك أن النص يحتوى على عيوب، لكن المزايا ضائعة وسط سيل التفاصيل السلبية.

فى مسألة التعصب، قمنا من خلال النصوص بتتبع كل الألفاظ والتعبيرات التى تدور حول مفهوم "الجمال" فى نظر الآخر. تعددت الأمثلة التى استخرجناها والتى كانت تصف ألوان الفنون المختلفة من العروض المسرحية المصرية التى كانت تعرض فى الساحات العامة إلى الموسيقى والغناء الشعبى إلى ملامح البشر المختلفة وغيره، فلاحظنا أن المرجع دائما كان إلى الشىء الأوربى، والأوربى فقط وأن كل ماعداه كان قبيحا، غير مستساغ، دميما، لايحتمل، إلخ... ويعلق الكاتب - فى أحد النصوص- على العادات المصرية التى يجدها ضالة فيقول: "لا يمكن إذًا أن يكون المصريين قد أخذوا هذه العادات عن الأوربيين "[64]. كلما اقترب الإنسان من الصفات الأوربية كلما اكتملت إنسانيته، أما هؤلاء الذين يتمسكون بمصريتهم فيكرس لهم الوصف أرذل الصفات، كما أن كل مالايتفق مع مصلحة فرنسا يستحق الإغفال أو الاحتقار.

3- الأيديولوجية الاستعمارية:

لعل من أهم مايميز الدولة الحديثة تبنيها لكثير من الرؤى الاستعمارية التى من الممكن أن تنطبق على حالات مختلفة. و يبدو أن الأيديولوجية النابعة من الفكر الاستعمارى تظل متناقضة على مر الأزمنة واختلاف العصور، وتتسم فى جوهرها بصفات مميزة منها: فكرة تحقيق التحضر عن طريق الاستعمار، كان هذا هو شعار كتاب "الدولة الحديثة" وكأن هذين المفهومين (التحضر والاستعمار) وجهان لعملة واحدة. لذلك تظهر النصوص شرعية الاحتلال. وباسم الحضارة كان للمحتل الحق فى إحراق القرى وهدم الأحياء ومحاولة إلغاء خصوصية الشعب المصرى، هذه الحركة المدمرة ليست حركة معابة بما أنها موجهة ضد شعب "داع للقتال" بقيادة شيوخ "متعصبين"، لذلك لابد من تهذيبه عن طريق الاستعمار[65].

يتعمد المؤلفون رسم خطوط معينة للوحة بانورامية تشع منها دلالات خاصة (كاللوحة الشهيرة التى رسمت لنابليون بونابرت بعد موقعة إمبابة التى أطلق عليها الفرنسيون اسم "موقعة الأهرامات"، لإعطائها جاذبية خاصة، وقد ظهر فيها بونابرت وكأنه الفاتح المنتصر المقتحم لظلمات التخلف، مرفوع الرأس شديد البأس وسط حشد من القتلى الجبناء والمتوسلين إليه طالبين العفو والسماح..).

والفكرة التى ظلت تتردد حتى يومنا هذا لدى كثير من المفكرين فى أحاديثهم وفى كتبهم هى عزل مصر عن الكيان العربى واعتبار أنها دولة مختلفة، وكأنهم يقدرونها بإبعادها عن الهمجية والتخلف، فهناك عدو واحد يهدد مصر وفرنسا معا: هو الوجود العربى. لابد من التعامل مع مصر على أنها ذات حضارة فرعونية متوسطية[66] وأن عبور العرب واستيطانهم بها ليس سوى حدثا عابرا لم يؤثر على ذاتها وعلى مصريتها البتة.

أما وحشية حرب الاحتلال كما رواها شهود العيان وكما قصها الفرنسيون أنفسهم فى مذكراتهم، وضراوة النيران، فهى العقاب العادل إذا ما اعترضت الشعوب على التدخل الأجنبى الفرنسى أو حاولت مقاومته؛ إذ كيف يجرءون على

رفض الاحتلال "المستنير" للفرنسيين ؟! لابد إذًا من دفع ثمن الرفض والتحدى. هذه بالتحديد هى "العلموية" Le Scientisme بالمعنى الذى يستخدمه تودوروف فى الكتاب السابق ذكره؛ أى الاستخدام السياسى للعلم لتحقيق هدف معين؛ خاصة أن تدريب المصريين وتأهيلهم علميا كانت مسألة مستبعدة -تماما- من جانب المحتلين، فالخضوع والتعلم مفهومان لايلتقيان أبدا، وهذا مافعله -بالفعل- الفرنسيون وما أعلنوه فى جلساتهم عندما رغبوا فى بناء بعض المصانع الصغيرة لسد حاجة الجيش الفرنسى وتوفير مستلزماته - أن يمنعوا المصريين من الاشتراك فى أى نشاط اقتصادى، وأنهم لو اضطروا للجلاء عن مصر فسوف يقومون بترحيل المعدات على بواخر العودة أو يقومون بتدميرها[67]. ويكفى هذا الموقف لدحض مزاعم الاستعمار - أى استعمار - عن النتائج العلمية والثقافية التى يمكن أن تترتب على تواجده ببلد ما.

ثم إن الخطاب غير منطقى ويعكس ازدواجية فى التعامل مع الأحداث، فما يطلق عليه - مثلا- العنف، نرى -عبر الوصف- أنه فى حقيقة الأمر- مقاومة شعبية باسلة، وحرب تحرير حقيقية ضد المحتل[68]. والحديث متناقض يتحدث فيه المؤلفون عن القمع الموجود فى مصر فى الوقت الذى يحكى أحدهم فى زلة لسان عن بعض أساليب القمع الوحشية التى تعامل بها الفرنسيون مع الأهالى. لهذا كله يمكن أن نجد فى مؤلف "الدولة الحديثة" تطبيقا عمليا للنظرية الاستعمارية، فهو ليس مجرد رصد معتاد للأحداث أو ملاحظة نوعية لواقع البلاد، لكنه مشاركة فعالة من أجل تغيير حقيقى وتحويل كامل لها. والتأريخ فى هذه الحالة يخضع لتوجهات الرؤية الفرنسية المغرضة. ومن خلال الوصف يحدث تزييف للحقيقة وتصبح للكتابة وظيفة أبعد مما يلوح به عنوان الموسوعة "وصف مصر"؛ لأن الكتابة هنا هى الوسيلة الباقية للتعويض عن الهزيمة العسكرية، والسبيل الوحيد لشجب الإحساس بالمرارة وخيبة الأمل، وربما الانتقام من التجربة السيئة التى مروا بها فى مصر.

وتطل الصورة الهزلية والمفككة - من تحت اللذعة الساخرة- عن طريق التجزئة: تجزئة المكان تعنى أن العلاقة هنا لاتبدو كأنها علاقة الجزء بالكل، مع تعمد حجب فكرة الأمة الواحدة المتجانسة. وقد لايمس هذا التفكيك المتعمد الأماكن فقط وانما أيضا البشر، فمن السهل أن نلتقط فكرة أن الأرض مأهولة بجماعات ليس بينها خواص مشتركة، ولكن مفهوم "الشعب المصرى" متغيب -تماما- وسط حديث يعطى كله إيحاء بشعب غير موحد، متفرق ومرتحل. والغريب أن الكتاب عند وصفهم لمنطقة معينة يسعون لمقارنتها بمصر وكأنها ليست جزءا منها، سواء على المستوى المعمارى، أو التاريخى، أو ملامح البشر، أواللغة المستخدمة أوالفنون، وهكذا[69].. فتبدو الثقافة المصرية كأنها تجميع لبعض الخطوط المفقودة وليست كبنيان واحد متماسك. لايمكن إذًا لهؤلاء البشر الذين يقطنون فى أماكن متباينة المعالم أن يصبحوا ندا للأمة الفرنسية المتماسكة المنظمة، أو أن يقوموا ببلورة مجتمع حديث ومتحضر كما أقامه الآخرون. من ضمن الدعاوى الاستعمارية أيضا قلب المعايير فما يعتبره البشر عادة ميزة يتحول بريشة المؤلفين إلى عيب خطير. وتتحول القيم الإيجابية كرفض الخضوع والاستسلام إلى "تعصب"، ويصبح أهل البلد الأصليين دخلاء عليها، ويتم تبرير وتمجيد أى فعل يصدر من الذات طالما أنه يخدم وجهة النظر المشار إليها.

أحيانا يكون لحجب المعانى مدلولات أبلغ من التصريح بها. فهل يمكن أن يصبح الصمت نوعاً من أنواع التعبير؟ إن إلغاء الحدث أو تجنب التحدث عنه يعنى أن للحدث أهمية قصوى يسعى المرسل لإخفائها. مما يلفت النظر -مثلا- أن الإسهامات العربية فى دفع الحضارة الإنسانية ودورها البارز -حين كانت أوربا تغط فى سبات عميق فى العصور الوسطى- لم يتم الإشارة إليه أبدا فى النصوص عند إثارة موضوع "العرب المقيمون فى مصر" على حد قولهم. كذلك مسألة هزيمة الفرنسيين وجلائهم عن مصر- لماذا لم تُثَرْ نهائيا على الورق؟ لأن الكتّاب يرون فيها عارا وخزيا يتناقض مع الصورة التى يريدون بثها عن مجد فرنسا الثورية وعظمتها التى لاتضاهى. كما أن اللعب بمشاعر المستمع ومحاولة إقناعه بوجه نظر معينة

يستلزم اختيار الألفاظ المناسبة. وقد ظل الخطاب السياسى، المنقول عبر النصوص، يتعمد التذكير بالرسالة الحضارية التى أخذتها فرنسا على عاتقها عند المجىء إلى مصر، مع إخفاء حقيقة الهزيمة النكراء التى تعرضت لها واضطرتها للجلاء على البواخر الإنجليزية، ثم هناك التحريض على العودة مرة أخرى، ولكن مع تقديم المحاذير اللازمة المستمدة من التجربة الفعلية.

على أن مشروعية الأمر من عدمه ليست محل شك أو تساؤل؛ فأسلوب الكتابة والبراهين المقدمة -سلفا تثبت- يقينا- أن حركة الاستعمار مشروعة تماما ولاتحتمل المراجعة. هنا أيضا تظهر ازدواجية الحكم على الأمور التى تميز أى أيديولوجية استعمارية؛ فمفهوم الحرية الذى كان أحد الأسس الثلاثة التى نادت بها الثورة الفرنسية يفَسَر حسب أهواء من يكتبون؛ لأن الاحتلال هنا عملية تحرير تعيد للشعوب المقهورة حريتها.. وفى الوقت الذى يطالب فيه الآخر بتحقيق العدالة لنفسه يرفض الاعتراف بظلمه وعدوانه.

ربما من المفيد أن نذكر أنه فى السياق الاستعمارى فى العصر الحديث، كانت الحملة الفرنسية على مصر أول محاولة استعمارية أوربية للمنطقة منذ عصر الحملات الصليبية التى باءت إلى فشل ذريع تاركة وراءها - بالنسبة للفرنسيين - الإحساس بالمذلة والمرارة: فمصر لم تصبح مستعمرة ولم تحول إلى أرض فرنسية، وسرد الحكاية على حقيقتها بدون تزييف يعد طعنة لشرف فرنسا وسمعتها، وهو ما كان لابد من تجنب الإشارة إليه.

هذا التأرجح بين تزييف الواقع أو الصمت عنه، واللجوء إلى مصطلحات وصيغ نمطية معينة، يسهل تصنيفه داخل إطار الأيديولوجية الاستعمارية التقليدية. إن الخطاب التاريخى هنا خطاب سياسى من الدرجة الأولى، ووظيفة الوصف هى التبرير والإقناع والتحريض، وليس -كما يبدو من اسم الموسوعة- وصفاً بريئاً لواقع مصر وحالها فى نهاية القرن الثامن عشر. وهنا يأتى الاستفهام المحير عن ارتباط الوصف بالموضوعية العلمية بشكل عام ثم وضعه فى "وصف مصر" بشكل

خاص؛ فمما لاشك فيه أن الوصف –غالبا– ما يخضع لرؤية الواصف وذاته ومواقفه الخاصة تجاه البشر والأشياء، وإذا نحن اتخذنا من وصف مصر نموذجا على صحة هذا الاعتقاد فسوف نفهم كيف كانت الكتابة هدفا لنقل أيديولوجية المرسل، واستغلال المسميات والقيم الإنسانية العامة كالحرية والشرف والمساواة؛ لبث وجهات النظر عن الذات وعن الآخر، وإخفاء كل مالايتفق مع النظرة الخاصة للأمور.

* * *

يتضح بعد هذا البحث فى نظرة الآخر، عبر الجزء الخاص "بالدولة الحديثة" فى موسوعة وصف مصر، أن النظرة التى يوليها المؤلفون لمصر لاتقف عند حدود التأمل، وإنما هى نظرة الطامع المشتهى. لقد جعلت الثورة الفرنسية من نفسها فاعلا رئيساً، وربما أوحد لبرنامج هدفه "إعادة بناء المجتمع الإنسانى". لكن برنامج الهيمنة الجديدة كان يتطلب أيديولوجية تحقق الهدف، وترتبط –عضويا– بفلسفة التنوير، بعد أن بث التنويريون فكرة أن فرنسا هى الأمة العظيمة العليا. وعليه فإن القدر (أو التاريخ) قد كلفها بمأمورية خاصة؛ وهى تحرير الشعوب ونقل التحضر إليها. لكن واجب نقل الحضارة إلى الأجناس المتخلفة يستلزم حق التدخل من الأجناس المتقدمة؛ فابتكر مفهوم "الرسالة الحضارية" من فرنسا إلى الآخرين، وكان الغرض الحقيقى هو تبرير طموحاتها الاستعمارية. وهكذا فقد طارت فرنسا لمد يد العون إلى المصريين البؤساء؛ لتذيقهم حلاوة التحضر الإنسانى، لكنها فشلت فشلا ذريعا فى ذلك واتهمت مصر – من خلال المادة الوصفية – بأنها بلاد تتمسك بالرجعية والتخلف ولاتصبو إلى التقدم الإنسانى المنشود. وسواء على مستوى النظرية أو الممارسة فإن المؤمنين بهذه القضايا كانت لهم رؤية معينة للكون تحددها – فقط– المصالح الفرنسية.

فى هذا الإطار الفكرى يمكن تصنيف الحملة العسكرية على مصر وما نتج عنها بعد ذلك على المستوى الثقافى بإصدار موسوعة وصف مصر، بأنها كانت مشروعا

استعمارياً وبالرغم من كل الحجج والتبريرات التاريخية السياسية التى أعطيت وقتها لغزو مصر وماتلاها من نتائج، إلا أن السياسة الاستعمارية تؤسس دائما - على نحو ما هو معروف - على مذاهب عنصرية واضحة، مهما حاول المرسل إعادة تركيب أو تزييف الواقع، حتى يبدو -أحيانا- كأننا فى حضور مسرحية هزلية مضحكة.

أما عن القيمة التاريخية والعلمية لمؤلف وصف مصر، فيما استطاع أن يضيفه -موضوعيا- عن مصر، فهذا الموضوع يقع فى سياق جدل أوسع عن التأثير الثقافى والفكرى للحملة الفرنسية- عموما، وماتلاها من لجوء الوالى محمد على إلى إرسال البعثات العلمية لفرنسا بالذات، واعتماده -هو وأولاده من بعده- على نخبة من الفنانين والمفكرين الفرنسيين لإعادة بناء مصر الحديثة: فهناك من يدافع وهناك من يشجب بشدة، وإذا كانت مسألة فشل المبادرة الاستعمارية الفرنسية على مصر قضية مفروغ منها ولاجدال فيها على المستوى العسكرى، إلا أن التأثير الثقافى والعلمى لهذه الحملة يستوجب مزيدا من الدراسات الموضوعية؛ لوضعه فى سياقه الواقعى دون مغالاة.

أما عن التأثير المعنوى الذى تركته الحملة فقد كان صداه مختلفا لدى الطرفين؛ أى فى كل من مصر وفرنسا: فبالنسبة للأخيرة تتعمد المناهج الدراسية الفرنسية إخفاء تاريخ بداية ونهاية الحملة على مصر، وقصر ذكرها على بضعة جمل تأتى فى إطار الدرس العام الخاص ببونابرت أو حكومة المديرين Le Directoire وعدم إفراد جزء كاف لها فى المنهج الدراسى المدرسى؛ ربما لأن القائمين على التعليم يتعمدون إظهار الحلقات والأحداث التى تمجد تاريخ فرنسا، وإغفال مالا يحقق هذا الهدف [70]. أما فى مصر فرغم المحاولات المستعصية لإفراغ هذا الحدث من مضمونه الاستعمارى فقد تسبب فى أزمة للوعى والضمير المصرى، وفى تحديد صورة العلاقات المصرية الغربية بشكل عام؛ حيث أدرك الكثيرون أن نظرة الآخر لنا هى وجه من وجوه إنكاره لوجودنا.

الهوامش

1 Tzvetan TODOROV: Nous et les Autres, Paris, Seuil, 1989, p.425.

2 Manal KHEDR: La Description de l'Egypte: le Regard de l'Autre (l'Etat moderne),, thèse de doctorat P.H.D, Université du Caire, Le Caire, 1998.

3 قدمنا فى الأطروحة، ص ص. 134- 140 قائمة بأسماء الكتّاب المشاركين فى الجزء الخاص بالدولة الحديثة مع نبذة عن السيرة الذاتية لكل منهم.

4 نذكر أن السبب المعلن وقتها كان سوء معاملة المماليك للتجار الفرنسيين الموجودين فى مصر وفرضهم ضرائب باهظة عليهم، ولا يخفى علينا رغبة فرنسا فى ضرب إنجلترا -عدوها التقليدى- بقطع طرق مواصلاتها الى الهند.

5 ذكرنا عناوينها وموضوعها وعدد صفحاتها بالنسبة لطبعة بانكوك فى نص الأطروحة: ص ص 116- 119.

6 المساحة المحددة وعنوان الورقة يضطرنا للتعميم وتخطى الخلافات الفكرية التى ظهرت بين فلاسفة التنوير آنذاك، فهدفنا هنا هو استخلاص جوهر فلسفة التنوير فيما ينعكس منها على غزو مصر.

7 Voltaire: L'Essai sur les Mœurs, Paris, Bordas, 1990, t.1, p. 83.

8 هذا واضح تماما فى النص السابع مثلا من عينة الدراسة وعنوانه: "Essai sur les Mœurs des Habitants modernes de l'Egypte".

9 هذا ما لاحظناه على سبيل المثال وليس الحصر،عند مقارنة ص 22،23 من النص المذكور أعلاه بصفحة 276 من مؤلف فولتير "الطوائف المحمدية" "Les Sectes Mahométanes"

10 أمضى فولنى سبع شهور فى مصرعام 1783 وكان تأثيره شديدا على تفكيرعلماء الحملة حتى إن كتابه كان الكتاب الوحيد الذى حمله بونابرت ذاته معه أثناء الرحلة على متن الباخرة.

11 Voyage en Egypte et en Syrie , Paris et La Haye, Mouton, 1959.

لقد لاقى هذا الكتاب إقبالا شديدا عند صدوره؛ حتى إنه أصبح المرشد الأمين للفرنسيين فى مصر.

12 هذا الجزء مأخوذ من البيان الذى أعده بونابرت للشعب المصرى على متن السفينة الحربية فى عرض البحر المتوسط وهو فى طريقه إلى مصر، والنص الكامل للبيان موجود فى كتاب هنرى لورنس عن الحملة، ص 40:

Henry LAURENS: L'Expédition d'Egypte (1798-1801) , Paris, Armand Colin, 1989.

13 معناها بالفرنسية الموسوعة، وقد بدأ التفكير فيها لمحاكاة وترجمة أنسيكلوبيديا العلوم والفنون التى ظهرت فى لندن عام 1728، ثم توسعت الفكرة وأصبح الهدف منها هو تسجيل كل أنواع المعارف الإنسانية وكل ماتوصل إليه العقل البشرى فى كل مجالات العلوم والفنون والتقنيات المختلفة؛ وقد صدرت بين عامى 1750و 1772 فى باريس.

14 صدر مؤلف وصف مصر فى فرنسا بعد عودة أعضاء الحملة بعدة سنوات (1809-1828).

15 ترجمة حرفية للنص الأصلى.

16 هذا الاستشهاد مأخوذ عن مقال لديدرو Diderot الذى يعتبر من أفضل من مثلوا الفكر الأنسكلوبيدى.

17 Maillet, D.: Description de l'Égypte, Composée sur le memoire de M. De Maillet par Moscrier, Paris 1935.

18 Dugua au Général Dumas, le 6 mai 1799, cité par H. Laurens: L'Expédition d'Egypte, op. cit., p. 206.

19 هذه البيانات الخصبة والغزيرة سوف تكون فيما بعد المادة الخصبة لوصف مصر.

20 Henry LAURENS: L'Expédition d'Egypte, op. cit., p.343.

21 ص ص134- 140.

22 Courrier de l'Egypte, le 23 janvier 1800.

23 لقد استشهدنا فى الأطروحة بالنصوص الدالة على ذلك واستجلبنا الجمل التى تعضد وجهة نظرنا.

24 إن هذه المبالغات ليست من تأليفنا لكن كثيراً من الجمل التى نعبر بها عبارة عن ترجمة حرفية من النصوص محل الدراسة.

Voir E. JOMARD:" Observstions sur les Arabes de l'Egypte moyenne" , t. XII, pp. 305, 318.

25 M. de CHABROL: " Esai sur les Moeur des Habitants modernes de l'Egypte ", t.XVIII, p.41.

26 Idem, p. 40.

27 يأتى تحديد ماهيتهم فى الجزء التالى من هذا البحث تحت عنوان: " النظرة المركبة والصور الملتبسة ".

28 M.COSTAZ: "Mémoire sur la Nubie et les Barâbras, t.XII", pp 249 , 258.

29 E. JOMARD: " Observations sur les Arabes de l'Egypte moyenne", t.XII, p.268.

30 H. LAURENS: L'Expédition… , op. cit., p. 340.

31 Charles Coulston GILLIPSIE et Michel DEWACHLER: Les Monuments de L'Egypte , trad de l'ang. , Paris, édit. Hazan, 1989, p.28.

32 إن كل رأى وتحليل أوردناه فى الأطروحة صاحبناه بالجمل النصية التى تدل على صحته من النص الفرنسى الأصلى.

33 كثيرا ماوجدنا هناك – تناقضا أوعدم دقة فى سرد الأحداث أو تضخيما لواقع معروف يصل بالكتابة إلى خاتمة وهمية يشوبها الكثير من سوء النية المتعمدة. انظر:

Manal KHEDR: La Description de l'Egypte, op. cit, pp. 175 – 195.

34 التحقق من صحة الخبر التاريخى أمر سهل إذا ماقورن النص موضوع الدراسة بكتابات تاريخية أخرى تتحدث عن مصر وقت وجود الفرنسيين بها.

35 كل ماورد فى هذا التحليل وثقناه فى الأطروحة بعرض الجمل الدالة على صحته من داخل النصوص نفسها، و كثيرا مما نقدمه فى التحليل هو ترجمة حرفية لما استخرجناه من النص الفرنسى.
Cf, par ex., E. JOMARD: " Observations..., pp.295, 320, 321.

36 M.Du Bois-Aymé: "Mémoire sur les Tribus arabes des Déserts de l'Egypte, t. XII, p.374.

37 قدمنا أمثلة كثيرة فى الأطروحة من النص الفرنسى الأصلى تؤكد كل صفة من هذه الأوصاف، خاصة وأن اللفظ كثيرا ماكان يقال مباشرة بدون مواراة.

38 استخرجنا أيضا من النصوص الفرنسية بعض الصور البلاغية التى تعكس هذا الحنق الشديد على العنصر العربى.

39 JOMARD: "Observations...", p.305.

40 A ce propos, voir entre autres: J.M.J.COUTELLE, t.XVI, pp.179, 180.

41 Voir M. Du Bois-Aymé, t. XII, p. 386.

42 انظر الأطروحة الأصلية، ص ص 196- 205

43 M.COSTAZ, membre de l'Institut d'Egypte:" Mémoire sur la Nubie et les Barâbras", t.XII, pp.253, 254.

44Voir M.DU BOIS-AYME: "Mémoire sur la ville de Qoçeyr et ses Environs et sur les Peuples nomads qui habitant cette partie de l'ancienne troglodytiqu ", t. XI, pp. 391, 394.

Voir aussi J.M.J. COUTELLE: " Observations sur la Topographie de la presqu'île de Sinaï, les Mœur, les Usages, l'Industrie, le Commerce et la Population des Habitans ", t.XVI, p. 179.

45 M. JOMARD: "Description abrégée de la ville et de la Citadelle du Kaire, suivie de l'Explication du Plan de cette ville et ses Environs, et contenant des Renseignements sur sa Distribution, ses Monuments, sa Population, son commerce et son industrie ", p. 371.

46 M.DU BOIS-AYME: " Mémoire sur les Tribus arabes des Déserts de l'Egypte", p. 355.

47 M. DE CHABROL: " Essai sur les Mœurs de habitants modernes de l'Egypte ", t. XVIII, section III:"Des différentes religions", pp. 11, 12.

48 يظهر ذلك على سبيل المثال فى النص السابع ص 3 والنص العاشر ص 456.

49 Ibidem, p. 12.

50 Idem, p.16.

51 JOMARD, " Description abrégée de la ville et de la Citadelle du Kaire..." , p. 290.

52Idem, p.317.

53 Idem, p.438.

54 M. le baron LARREY, docteur en chirurgie de Paris et en médicine de l'Université d'Iéna, member de l'Institut d'Egypte et de plusieurs academies, l'un des

commandans de la Légion d'honneur: "Notice sur la confrontation physique des Egyptiens et des différentes races qui habitant l'Egypte, suivie de quelques réflexions sur l'Embaumement des momies " , p.64.

55 هذا ما ذكره كليبير فى تقريره إلى الإدارة الفرنسية بعد ثورة القاهرة الثانية فى مارس 1800. بخصوص نص التقرير، انظر

H. LAURENS: L'Expédition d'Egypte, op. cit., p. 261.

56 Kléber en Egypte, 2 vol., col. Voyageurs occidentaux en Egypte; étude historique, présentation et notes par Henry Laurens, Le Caire, IFAO, 1988.

57 أما عن الأمثلة الوثائقية التى تدل على ذلك فقد قدمناها باستفاضة فى الدراسة الأصلية.

58 إن صفة البؤس من الصفات التى ترددت كثيرا فى المؤلف للتعبير عن كل ماينسب لمصر.

59 FEU M. MALUS: "Extrait d'un Mémoire sur l'Etat ancient et moderne des Provinces orientales de la Basse-Egypte", t. XVIII / 2, p. 28.

60 Voir M. DU BOIS-AYME: " Mémoire sur les Tribus arabes... ", pp. 382 – 384.

Voir aussi M. DE CHABROL: op cit., p.30.

61 M. JOMARD: " Description abrégée de la Ville et de la Citadelle du Kaire...", op.cit., p. 454.

62 بالفعل، كانت إرهاصات التيار الرومانسى قد بدأت تشق طريقها مع بداية القرن التاسع عشر، فى الكتابة الأدبية فى فرنسا.

63 M. JOMARD:" Description abrégée de la Ville...", op. cit., p. 348.

64 M. JOMARD: idem, p. 440.

65 انظر مثلا نص جومار، صـ 134 حيث كتبت الفكرة صراحة بدون أى مواراة.

66 نفس الفكرة التى اقتبسها ورددها بعض المفكرين المصريين، ومنهم طه حسين فى كتابه الذى أثار ضجة عند صدوره: مستقبل الثقافة فى مصر، القاهرة، 1949.

67 Henry LAURENS: L'Expédition d'Egypte, op.cit., p.287.

68 E. JOMARD: Observations sur les Arabes de l'Egypte moyenne", pp. 275, 282.

69 كما فى وصف مدينة قصير فى النص الأول من عينة الدراسة DU BOIS-AYME: "Mémoire sur la ville de Qoçeyr",op.cit.

70 فى هذا الصدد انظر رسالة دكتوراه فريدة جاد الحق:

La Représentation de l'Orient arabe dans le Discours historique français 1945-1969, thèse de doctorat P.H.D, Le Caire, Université du Caire, 1997.

❊ ❊ ❊